لما رحلت البداية (1)

باسمة التكروري *

ذاكرة ضد النسيان

«لما رحلت البداية»، رواية بصدد أن ترى النور قريباً لـ«باسمة التكروري»، هذا الصوت الذي يلمع على صفحة «يراعات» في جريدة الأيام كلّ أربعاء . . وجع في الذات والأشياء نلمحه ونحسّ به بين السطور، ليلٌ وأحلام ناقصة وغياب جارح، كلّ ذلك وغيره يكرج في الرواية . . نداءات بعضها وصل والآخر على نيّة الوصول . . بداية رغم رحيلها المرّ إلاّ أنها ما زالت منقوشة على جدار الروح الذاهبة إلى وحدتها . . لا تبدو العزلة اغتراباً لدى باسمة، بل تنسج وبرويّة رداءً شفيفاً من اللغة التي تنفذ لما وراء الحزن واللوعة والفقدان . . التجربة حادّة والبوح فيها وعنها أشدّ حدّة وأكثر إيلاماً . . رغم ذلك تجترح باسمة الكتابة وسيلة للمقاومة . . مقاومة النسيان بالتأكيد . . اليوم تفتح (أقواس) ذراعين متوارفين لاحتضان هذه التجربة والاحتفاء بها ومكاتفتها لتعبر «هذا الطريق إلى آخره»، من حقّ هؤلاء أن يكتبوا ويقترحوا . . ومن واجبنا أن نترك لهم فسحة الحرية والتجريب والاختلاف . . من حقّهم أن يحلموا بنصّ أخضر وغد أنضر . . وعلينا أن نحيل اليباس الذي يزحف نحو الروح والجسد إلى بستان ريّان غنيّ بأزهاره وأشجاره التي تأتلف لتختلف، باسمةً التكروري ذهاب عاصف في أعماق تنوء بأثقالها . . وسفر تجاه مناطق عذراء وبرّ مفتوح .

مراد السوداني

(1)

يحدث للوقت أن ينسى البداية كما ينساها الجميع، لكن بداية واحدة لم أنسها أنا، على الأقل لتاريخ جهلته، فبنيته كما أرادت مخيلتي . .

الآن، وفي ليل وحدة سكنتني وفرغت روحي من روحي، وأرسلتها إلى أوراق الماضي، ممحاة سحرية تمحو غمام حقد بناه حب هارب . .

الآن، وبعد الذكريات، أجد القبر الذي احتوى الماضي اثني عشر شتاء، يلفظ اليوم شتاء جديداً . . يحمل أوراق الذاكرة وعبق ياسمينة عجوز . .

لن أتجه الآن إلى الشعر، ولن أدع يد الفلسفة تخرب ما أريد وصفه، لكنها اللغة التي أملك !

هذه أنا . .

طوال الوقت الذي مضى عليّ كنت أعي حقيقة اختلافي عن أيّ زوجة، بعد أن تزوجت «رائد»، وأنجبت «رفيق»، شعرت

أننا لم نكن مثل أي عائلة، كان فينا شيء خاص. . لا أدري بالضبط أو بالتحديد ما هو، ربما كانت تلك الذكريات التي سبقت حياتنا معاً. . ربما!

كنا أشبه بعالم صغير - كبير، رحت عنه يا أبي قبل أن نعيشه! في هذا العالم الذي تكوّن بعد معاناة وهروب وفشل ودمع. . عالمي ورائد الذي خلتك منذ عرفته تشبهه، وخلته قادراً على أن يكون أنت، فحمَّلته وزر أبوتك فوق مسؤوليته كزوج!

ورفيق ثالثنا والمعلم. .

عّلمني و«رائد» كيف نحب بعضنا لنحبه أكثر. . أعطانا الحلم وطوره ليبقى هو بطله والمخرج. . وهو بداية العالم. . علَّمنا كيف نزيح الغيرة، وكيف نؤثّر بعضنا على بعض، كيف تكون العائلة، وكيف نخاصم الشقاقات. . وعلمنا كيف ننسى مشاكلنا لنضحك منها فنضحكها ونضحك معاً. .

لا تدمع في قبرك يا أبي. . فأنا لا أكتب لك لأحزنك. . أعلم كم احتجتَ لحفيد تستعيدني من خلاله طفلةً، لتربيني مرة أخرى، وقد خرجت من اللّفة في مخيلتك إلى واقعك امرأة، وزوجة لرجل آخر قبل أن أصبح ابنتك بما يكفي. . حفيدك «رفيق»، الذي أعطيته اسمه ولم تناده به، يشبهك، ليس لأنني أريد ذلك كما كان الأمر مع «رائد»، ليس لأني رفضت أن أفقدك، أو لأنني أحبه كما أحبك. . لا، لأنه أنت!

أما طلبت مني أن أحمل لك ولادةً أخرى مع ابني؟

جاءت ولادتك أنت، جئتني طفلا!

أكتب لك اليوم وقد قرأت بكاءك. .

أكتب وقد أحرقتْ دمعاتك حقدي ورمته إلى بُعد رابع كي لا يكتشفه أحد. . ورمت دمع دعواتي عليك في سَني الحسرة. . يا حباً راح قبل أن يعرف بدايته. .

أكتب لأخبرك أن «رفيق» اليوم سألني عنك، في لحظة حاجتي إليك. . قال وهو يجمع الدمع عن صورتك. . من هذا يا أمي؟

كنت تكتب إذاً. . كنت تصدق ويكذب غيرك. . لمَ يكذب الناس على لسان الصادقين يا أبي؟

عصفتْ بي دموعك وشقّتْ عيوني لتفضح الكذبة، هاجمتني كلماتك حتى الهزيمة، وتركتني تطلب العدل، ورفع الظلم عنك. .

أكنت تكتب مذكراتك، أم كتبت وثيقة الدفاع عن نفسك أمامي؟

هل تنبأت بأني عائدة إلى بيتك لا محالة؟ وأنني من سيقرأ ما بكيت؟

لمن كنت تكتب يا أبي؟

أستحلفك بدمعي. .

لمن كنت تكتب؟

«ندى، إيمان، راسم»

بعد أن ننتهي. .

نبدأ. . أطفالاً من جديد. .»

وأبداً. .

ابنتك الآن!

(2)

لم تكن الفكرة أن نترك المدينة ذلك الشتاء، ولم أتوقع أن أصر ذلك الإصرار على قضاء العيد هناك، حيث القرية التي ولدت فيها.

لكن، كان ثمة نداء داخلي شدني نحوها وكان أقوى من رجاء «رفيق» لأن أعدل عن فكرة كهذه، نداء لا أعرف كيف توغَّل في نفسي وتجذَّر حتى صار حاجةً ملحةً، أو رغبة لا أعرف كيف أكبح جنونها، أو أوقفها.

أنا لم أزر القرية منذ توفي أبي، و«رفيق» لم يعرفها ولو رضيعاً، كان يمكن أن يكون الأمر عادياً لو عرف أصدقاء له هناك. . كانت عمته لم تسافر إلى الخليج وعائلتها قبل سنوات، أو لو أنه لم يعتد السفر لقضاء العيد في مناطق تختلف كثيراً عن القرية.

لست أفهم حتى الآن ما كان لي والقرية، وما تلك الأصوات الحميمة التي تغزل لنفسها أسرة وأعشاشاً في رأسي، وكثيراً ما أتساءل إن كان ما أنا فيه نوعاً من الحنين لأيام الدمع، أم كان حنيناً لسنواتي الأولى في المدينة، وأعياد القرية التي ما كنت أخلفها.

عندما أفكر اليوم بارتباطي الوثيق في المدينة وبيتنا الصغير أعود إلى أيامي الأولى فيها، إذ كنت طالبة في جامعة

القدس، لم تكن المدينة تعني لي شيئاً . . كانت كالغربة، وأقسمت لنفسي أني سأتركها حال إنهائي الدراسة، وما صدقت .

تلك الأيام، ما كنت و«رائد» أكثر من طالبة وأستاذها، أو هكذا خيل لي من خلال عاديته التي وإن كان قد أفرط فيها إلى حد التسبب بجرح جعلني أكثر عناداً لنفسي وله ولكل ما حولنا، لكنه كان بعيداً لدرجة أنني شككت بكل الحب الذي رأيته في عينيه قبل أن أرفضه، حين فعلت ذلك وبترت قضيتنا قبل أن يكتمل لها عمر بنقاش أو حوار، قلت الـ (لا) قبل أن يجلس أو يلتقط نفسه بعد مشقة السير من بيته أسفل الحارة، حيث يبدأ السهل يتكون، إلى بيتنا أعلى الحارة، هكذا كانت «الجلمة» توزع نفسها بين رأس الجبل وأول السهل بيوتاً وبشر، وتترك للسهل أن يلبس سنابل القمح وغناء المواسم .

في جامعة القدس أصبحت أراه، وكأن الغشاوة اللعنة التي كانت على مقلتي انحسرت إلى ما لا نهاية، لكنه كان قاسياً جداً في جفائه، وانطفاء الكلمات في عينيه، رحل عني قبل أن يرحل، وأصبح شخصاً لا يعرف كيف يتكلم إليَّ دون أن يلبس عاديته تلك، أذكر مرة كيف كنا نجلس على رصيف محطة الحافلة التي تأخذنا إلى «الجلمة»، وقد صادف أن تشابه وقت عودتنا، أقول صادف، لأنه قلّما وضع نفسه في موقف مشابه معي، ولو حدث وصادفني لعاد إلى مكتبه دون أن يترك لعينيَّ أن تلتقيا عينيه، كان يقرأ في كتاب لا أذكر اسمه اللحظة، لكني أذكر غلافه تماماً، كان قهوائي اللون ولم يكن يحمل أي نقش سوى اسم الكتاب الذي جهدت كي أقرأه من بين أصابعه التي كانت تخفي معظمه، حاولت أن أفتح أي نقاش علني أنظر في عينيه، علني أعرف شيئاً عن هذا الرائد الجديد، لكن الكلمات التي كنت أعدها، كي أقول ما أبادئه الحديث بها، كانت تتجمد لحظة أقرر أن أنطقها، تتبدد ويهرب الصوت من حنجرتي، أي عذاب ولوعة غلفتني، صعب هو الوصف، لقد قرّحت عينيَّ دمعات لم ترد أن تبقى ولم ترد أن تنزل، أيضاً، لكنها أحرقتني، تمنيت أن يلتفت ليرى ما كنت فيه، لكنه كان يقرأ كأنما لن يحصل على الكتاب مرة أخرى. لماذا شعرت بحاجة إلى أن ألمس يده؟ أردت ذلك بكل ما كان يختلجني من تحرّق إلى الحديث إليه، أردت أن أفعل أي شيء يختصر الكلمات ويختصر هذا الجبل الجاثم فوق لساني .

- «لماذا أردت الذهاب إلى الجلمة هذا الشتاء بالذات؟» قال رفيق لي، وألبس عينيه السؤال بكل براءتهما التي أحببت، وخفت إن أنا حاورته حول الموضوع أن أخسر ضوءاً من الأضواء التي أشعر بها داخله، ربما هذا مصطلح ورثته عن أبي، إذ حادثني كثيراً عن أضواء يستشعرها تستنير لدى الأطفال حين يستفسرون عن حالة أو ظاهرة ونناقشها معهم، كان يشطح بعينيه بعيداً، ويقول إن الطفل يبدأ بالتخيل حالماً نناقشه، فتكثر أسئلته إلى درجة نخاف الإجابة عليها فلا نقوى على تاليتها !

لكن . . كيف أجيبك يا «رفيق»؟ وكيف أفسر لك ما لا أقدر على تفسيره لنفسي، فأبقيه هكذا طلباً مبهماً في منحنيات ضبابيتي؟ لماذا أردت أن أذهب ؟حاولت أن أجد أي تعليل يقنعني حتى أقنع طفلي به دون متاعب ضميرية لي، لم أجد غير صور مسكينة لكلمات صعب أن تترابط كي تصبح جملاً، حاولت أن أجد ما أقوله .

أذكر أنني تذرَّعت برغبة لا أعرف كيف قفزت إلى مخيلتي وأنا أحاول التبرير له؛ رغبة في التقائي بمن أعرف هناك، عله أعاد إليّ صورة من صور أمي التي طويتها دون قصد في سني طفولتي الأولى، قلت له إن هذه الرغبة ظلت تسكنني منذ ضممته أول مرة .

كم راودني شعور بأنه يحمل رائحة أبي حين ضممته، ذلك الطفل أبي !

كانت الصورة في مشاعري تتقلب، فأراه بين يديَّ طفلاً، أحبه حد التضحية بـ . . بـ . . لا أعرف، بأي شيء . . لأجله . . وهو الذي مات تاركاً عينيه فينا كي نراه، ولم يترك أي شيء منا معه . .

لم يعرف كم نحبه، ونحبه . .

لم يحدث ذلك؟

لم نحب بعد أن ينتهي زمن الحب الحي ؟!

لماذا رفضت حب «رائد» بذلك الشكل؟ لماذا رفضت كل مساعدة حاول تقديمها لي ولأمي؟ كيف يكون الإنسان حين يحاكم نفسه بعد العمر عن عمره الفائت، فيكتشف كم من الهموم كان سيختصر لو فكر أكثر؟ أههههه !! هو العمر،

هو ذلك القط المذعور يقفز من جدار إلى جدار، من سطح إلى سطح دون أن يذهب ألمه عنه، أو يستفيد من قفزاته شيئاً سوى زيادة رعبه!

برز «رائد» من غياب أبي رجلاً آخر، جاء إلى عالمي ملتفحاً رداء لطالما ألبسته لوالدي عند تفكيري فيه، جاء إليَّ رجلاً يحادثني حباً، وأخاف الماضي.. عودته على يديه إليَّ، فأصير أمي، ويهرب «رائد» - أبي - عني!

كيف كان «رائد»؟ أسأل نفسي اليوم بعد أن قرأت من كلمات والدي ما قرأت:

هل كان رائعاً كما أخرجه لي والدي من صفحاته؟ أم كان رائعاً فيه ذلك الشبه الذي اعتقدته بينه وبين والدي؟!

أذكر كيف كان «رائد» يحمل عنه عبء مشاعره معظم أيامنا دون أن يعرف..

كنت أعطيه صورة أبي لأهزم غيابه في حضوره.. وكنت أحس بأبي بيننا، إذ أنظر إلى عينيه وفيهما تلك الكهرباء الغريبة تسري إليَّ لترقص الرعشة في خلاياي خلية خلية!

أكاد أخطئ فأناديه (أبي) وألتصق به، بهما معا، بوالدي يضحك لي، ويخفف عني، ويضمني من خلاله، أو أن أبي كان معي وكنت ألبسه صورة «رائد»، لا شيء في هذه الذاكرة يعرف القانون الذي درست، ودرس «رائد»!

- حين قرأت لـ «رائد» ما كتب والدي عنه ضحك كثيراً، كان مستلذاً بالكلمات حد احتضانها أو الغوص فيها، وحمل معناها مع نبرات الصوت حين تلفظ، شعرت به يتأمل شفتيَّ تلفظان ما قال أبي فيه، لم يتفوه بكلمة واحدة ولم يقاطعني ليعلق، كما كان يفعل حين أقرأ له ما كتبت في التحضير لأي مرافعة، بل تركني أقرأ الصفحات، مدخناً سيجارته بصمت عميق، كان يخرج دخانه من فمه بطريقته القديمة، تماماً كما وصفها أبي، وكان يضحك إذ يراقب الدخان الخارج من فمه، وما كدت أنهي آخر حرف عنه حتى وجدته يمسد بيمناه على شعري ويضحك لي أو للفضاء الذي ارتسم له مكاني وحدق فيه.

كان شارداً أو متعمقاً في ذكرياته حد الرجوع الذهني الكامل إلى الأيام التي تحدث عنها والدي، سحبني إليه ولا تزال آثار الضحك تغطي شفتيه، وتفرجهما عن أسنانه البيضاء الحلوة، وكرر ما قال أبي يصف الدخان الخارج من فمه:

«.. وسحب «رائد» من سيجارته نفساً خلته لن ينتهي، وكما كنت أعجب ممن يشربون كأس الماء دفعة واحدة، كدت أعجب لسحبه سيجارته كلها بنفس واحد، لكنه أنهى السحب والسيجارة بقيت منتصبة بين إصبعيه، لم أر أحداً يدخن بتلك الطريقة، حتى الدخان الذي سحب لم يخرجه بوقت أقل من ذاك الذي استغرقه يسحبه فيه، وخرج سحابةً كأنما هي عمود ثلاثي الأبعاد..»

ماذا يكون لنا أن نقول وقد كشفنا بعيونه؟ شرّحنا يا ندى!

أعيدي ما قال عليّ بصوتك، أعيديه، فكم يحمل صوتك صورته إليَّ، ويعيدني نحو التذكر مثل عصفور يعود إلى بلاد الجنوب، حيث الدفء الذي هرب يعود، ويترك بي ذلك التحرق إلى شيء غريب لذيذ داخلي، كأنما يلزمنا الماضي لنعيش حاضرنا كما يجب!

وصمت محدقاً من جديد في ما وراء النافذة، عل ستائر الأيام تنجلي عما مضى، فيذكر ما كان فيها بصورة أوضح وأجمل.

«رائد» الذي رفض أبي زواجي منه..

أذكر يومها كيف غضب أبي، وقال إنني أصغر من أن أحمل مقاليد بيت.. وقال إن «رائد» لن ينجح بحماية نفسه كي يحميني.. سألته يومها:

- مم يحميني يا أبي؟

بكى، وقال:

- «من ذكرياتك الدامية.. من جرحك الذي لم أُداوه بعد..».

أمسكني من كتفي وهزني معتصراً، الغصة في صوته، قال:

- «كيف أبعثك جريحة من رجل كان يجب أن يكون أباك وهرب، لرجل يريدك امرأة.. وأنت طفلة لم يضمها والد بعد..».

ضمني إليه وهمس:

- «بما يكفي لتكون امرأة لرجل آخر..».

لم أدر يومها من توقف عن البكاء قبل الآخر.. ولم أدر كيف توقفنا.. أو إن كنا فعلنا ذلك.. لكنني أذكر ما اعتراني ذلك اليوم من شعور بالالتصاق بوالدي، والالتحام معه لدرجة أنني فكرت فعلاً بترك «رائد» لأبقى على صدر أبي بقيّة العمر، كم احتجت إليه في غيابه، كم استحضرته في

لحظة كهذه بالذات .
عندما أذكر «رائد» اليوم، لا أقدر أن أكون على الحياد لأصف صورة من ألبوم الذاكرة له قبل أن يصبح زوجاً، ليس لي مع الدنيا من شيء يبقيني متأملة غدها سواه و«رفيق»!
حين أعود بالذاكرة إلى أيام صباي وصباه، أجده شاباً حاملاً ذنب هروب غيره، وحقدي . .
ياه لتلك الدوّامة الصمّاء التي عشت عمري تائهةً فيها أحمّل كل الرجال ذنب أبي، كنت أراه في عيون «رائد» . . وأستنزف عذابه في ذبح «رائد»، كيف سكنتني تلك الأرواح الشريرة؟ كيف أحالتني إلى منتقمة عمياء ؟!
حين رحلت أمي وسط الحلم شعرت أن مواساة «رائد» لي، ما كانت إلا مواساة من أبي، لماذا ؟ وماذا كنت أعرف عن أبي سوى أنه مات، وعاش على شفة أمي متجسداً كلماتها الأخيرة قبل أن تسلّم روحها على مضض وهي توصيني البحث عن أبي، بعد أن عشت أعوامي السبعة عشر على وهم موته ، وأنا أرفض أن أذكر يوم رحيله الذي اعتاد أهل القرية تعزية أمي فيه !!
لم أزر ذلك القبر الفارغ من جثمانه المكذوب ، كأنما كنت أدخل عيونهم جميعاً لأعلم أن الفاتحة المنحوتة في شاهد القبر كانت فاتحة وحيدة، ليس هناك من يؤنس وحدتها داخل الحفرة التي لم يردم ترابها على لحم . .
هل آمنوا حقا بأن والدي جزء من تراب القرية ليدفنوا ترابها بدلاً منه؟!
والدي . . آه . .

(3)

لو كنت تعرف يا أبي ما أصابني يوم رأيت زرقة يدها، حين دخلت الغرفة ظانة صمتها صمت حزن، بعدما تركتها إذ أخبرتني عنك!
كيف أرتب الذاكرة لأعيد بناء أحداث ذلك اليوم الذي دارت بي الدنيا فيه، وصحتُ صحتُ، لا أصدق أن الموت حق ، ظننت أن كل الميتين مثلك، مكذوبون، دوماً كنت أجد الموت كذبة تختبئ الشياطين وراءها كي تهرب بالحقيقة !
-لكن يدها كانت زرقاء، وتبعت زرقتها صفرة بلهاء ، ظننت دموعي واحتراقي فوق الجثة سيعيد حمرة الحياة إليها، لكن الصفرة الماكرة ازدادت إذ تكاثر أهل الحي حولي!!
صامتةً كانت، لا أدري، لم تسمعني كذلك، ولم تصدقني حين قلت لها إن الموت أكذوبة إن قاومتها فستعيش، طلبت منها أن تفعل ذلك لأجلي . . لماذا يموت الناس؟ لماذا ترحل عني؟ ولماذا ولدت أنا ؟ أي عدل في ما لقيت في كل حياتي؟ وما الموت ؟
ما الموت ؟ كل ما تعلمت عن الموت في كل الدروس لم يقنعني بأن أمي كانت مثلها مثل أي مخلوق يولد ويموت، لماذا لم تعش حياة الناس إن كانت ستعامل عند الموت معاملة كل الناس ؟
هل كان يجب أن تموت أمي لأفهم أن الموت موجود، تماماً كما الكذب، وأنه ليس كل قبر كقبرك !
داخل الذهول وجدتني مطرقة ذاتية تهدم صورة الحياة العادية، أو شبه الحياة التي يعيشها الناس حولي، أهشّم ، أكسّر، أحطّم، ولا أندم أبداً، بل لا أكف عن الاستمرار بأي شيء يعارضه الآخرون، كأنما هي لعنة من نوع ما قد أحالت دخيلتي إلى فوضى، تختلف فيها الأشياء والألوان والمنطق، كل الطرق الحياتية، كل شيء، حتى معنى الحياة لم يعد يعرفه ذلك التشابك الذي سكنني . .
أية لعنة حلت بي؟ وأي استياء من هذه الدنيا ركبني؟ كانت تنمو داخلي صرخة تمرد، وتعلو سلالم العقل حتى الذروة . .
لمَ أعاني وحدي الحرمان، وأنا ما آذيت أحداً في حياتي؟ وَلم أحقد على أحد غيرك . .
وأنت كما اعتقدت حينها كنت أهلاً لحقدي .
كنت أمزّق نفسي حين وجدتني بين ذراعيك، حين سكنت للحظات صدرك، وانسابت أصابعك بين خصلات شعري لتصنع فيها ممرات تصل من خلالها همساتك، دافئاً كان صدرك، فيه ما لم أعرفه في حياتي! فيه ما لم سابقاً أعرف ما اعتراني من رضى ورفض، تحرق وغثيان . . كنت أنت تتكلم . .
لا . . بل كان «رائد» . . وسمعتك أنت، من كان معي ساعتها؟ أنت أم هو، لست أنت بل هو . . فأنت عدت بعد فترة من موتها ! لا أعرف، لا أعرف، فأنا وبعد السنوات

التي مضت، أعيش الآن تشوشاً يبعدني عن الدقة في أي شيء!
أعترف أن ما أعطيته من روحك لـ «رائد» ساعدني . . لكن ثورتي عليك لأنك السبب في أي شقاء أمر فيه، جعلتني أدفعك عني، ولم أقدر رغم ذلك أن أبعد عنك . . فـ «نصرة» العجوز، تلك التي حمل صمتها كل أسرارك . . تلك التي كانت توجدك أمامي في ابتسامة صماء ليس لها من الصوت غير ذلك الأنين القريب كأنما يلامس القلب صدقاً . . كانت كلما ضمتني دون صوت حقدت عليك أكثر . . ونعتك بالسارق . . فأنت سرقت فرحتي بوجودك معي، وسرقت روح أمي . . وصوت «نصرة»!
إن كانت تلك الصماء تثير توجساً بالشؤم إذا ابتسمت، أو لوحت لطفل، فقد أثارت في قلبي هياجاً صارخاً بأنك موجود في مكان ما، تلك العينان العجوزان المتمترستان وسط وجهها المجعود، قالتا كثيراً عنك، أو لمّحتا بما لم تقله «الجلمة» لي: هل كانت أمك؟ هل قربتك من هنا أو هناك؟
لماذا يربطون اسمها بالخوف؟ كثيراً ما سمعتهم يتقولون بحادثة الغراب، ولم أعلم بماهية تلك الحادثة طيلة أيام طفولتي، قالوا حط غراب على شرفتها ثلاث ليال قبل حادثة موت جدي لأمي في حقله، وقالوا حط ثلاث ليال أخرى قبل هروبك من «الجلمة»!
حاولت كثيراً أن أرقب غراب «نصرة» كي أتنبأ بحوادث شؤم قد تحدث، لكنني ما رأيت إلا عصافير الصباح تزقزق مشرعة أجنحة فرحة، ومناقير تلتقط فتافيت الخبز عن كفها النحيلة!
لم أعد أتوجس النظر إليها، وأصبحت أرد ابتساماتها، وألوح حتى تنخلع ساعداي لتلويحاتها حين أغادر «الجلمة» إلى الجامعة!
لماذا حرصت على أن تنظر لي تلك النظرة المتفحصة الحنون؟ ولماذا كنت أعرف أن في حرارة مصافحتها لي كلمات لو قالتها ما صدقتها مثلما فعلت، إذ أحسست بها تشد على كفي وتحنو في وقت واحد؟ كنت أعرف أنك لم تمت!
ربما كانت تمثل لي إيحاءً ما، أو تلميحاً لشبحك الناحل في عينيها، لا أدري . . لا . . لا أبداً . . لكنها كانت تعني لي شيئاً خاصاً منذ وعيت وجودها شاردةً على شرفتها، أو محدقة في صورة ما مطبوعة على باب دارنا!

و«نصرة» جاءت وانتزعتني من غضبي الذي صببته على «رائد» وسط حيرته وألمه، لتجعلني أغوص بين ذراعيها في هاويتي المظلمة، حيث أطل وجه أمي، وكبر . . كبر حتى أصبح ابتسامة فقط؛ ابتسامة بيضاء، ثم شفافة لا لون لها . . واختفى! فجأة اختفى حين كدت ألمسه!
أخرجت نفسي من بين ذراعي «نصرة»، ولا أدري أي عفريت لبسني ساعتها، هزني من كتفي بعنف صارخاً (لم تمت، لم تمت!) . ورددت أنا وراءه:
لم تمت!
لم تمت!
ولست أذكر كم رجلاً أوقعت وهم يسحبونها خارج الغرفة وأفواههم تملأها همسات (إنا لله وإنا إليه راجعون)، حين سحبتها بقوة، لست أعرف إن كانت قوة يغذيها خوفي من الفقد، ، الخوف من الموت نفسه، من الحياة التي تشكل تضاداً قوياً له، ومن الوجوه السوداء حولي . .
ناديتها في جزع . . صرخت فيهم أن يبتعدوا، قلت إنني لا أريدهم أن يساعدوني . . وإني أريد أمي فقط . .
حلفت برحمتك خطأً – كما اعتدت – أنها حية . . لكنهم عرفوا دوماً أنك لم تمت . . فلم يصدقوني . . ورفعوني عنها في رفق خالطته قوة تفوق تشبثي بها .
أذكر يا والدي نظرات ألم رائد التي شقت نظراتك بصعوبة لتصل إليّ متوسلة أن أصدقها . . وكدت . .
لكن، حلم أمي كان يجب أن يتحقق رغم العناد، ورغم كل ما فعلت لأبعد «رائد» عني، عاد جزءاً من الذاكرة وملتفاً حول أحاسيسي كطحلب، تحسبه مني وتحسبني منه . . كنت أمشي عكس الطرقات كي أعكس القدر . . وأغضب حين يجب أن أضحك . . أصرخ، ولا أبتسم . وما أفادني ذلك إلا في زيادة حبي له، حباً فيك، أو فيه، أو فيكما معاً، ولم أقدر أن أفرق بين حبي لك وله، حينها، كنتَ هو وكان أنت، وكنت لا أدري سبب الكثير من تصرفاتي معه وجفائي المتعمد له .
حين أتى «رائد» لخطبتي في حياة أمي رفضت . . ورفضت بإصرار . . جرحته وقلت إنه لا يوجد رجل في هذه الدنيا يستحقني .
هل كنت أعنيك أنت؟ وكنت أخاف أن أجدني ضحية على

يديك / يديه، كما كانت أمي من قبلي، . . خشيت أن تؤذيني / يؤذيني مرة أخرى .
خشيتك/ خشيته رغم الحب الذي كان صادقاً في عينيك / عينيه . .
كيف كانت عيناك/ عيناه لحظتها؟ كدت ألعن نفسي أمام الانكسار المشوب بالغضب الذي اجتاح عينيك/ عينيه، واجتاحني قاسياً، جارحاً، قاتلاً، وكاد يذيبني في بكاء قد لا يتوقف لو بدأ، كدت أختنق وأنا أسدُّ أي أمل في الاقتناع، وأشيح النظر عن انسحاقك/ انسحاقه كي لا تعترف عيناي وتخون عهدي لنفسي بأن لا أسمح لرجل أن يخدعني، بأن لا أسمح لرجل أن يحولني إلى ضحية، ولو كان أنت/ هو، بل إنني، ونكاية بمشاعري، افترضت أن خفقاتي الهائجة حين لقائك/ لقائه ما كانت سوى جزء من المؤامرة، وأمي كانت تحوم حولنا كفراشة حائرة، أتفرك النار بجناحيها لتعرف كنهها، أم تبتعد ناجية بي منها؟
كانت واثقة كل الثقة أنك/ أنه أفضل من سيتقدم للزواج مني، كانت كل خلاياها تعرف أننا سنكون معاً يوماً ما، رأيت ذلك في دموعها المنحبسة ، في ابتسامتها لدمعة فرت إلى وجنتي بعد انغلاق الباب عن صورة ظهرك/ ظهره الخارج من باحة المنزل نحو الحارة، وابتلعتك/ ابتلعته «الجلمة» لشهور بعدها.
أذكر يا أبي أني سألته يوماً عن تلك اللحظة، لا أعرف كيف انبثق السؤال من لا شيء، لم تكن إلا قضية عادية، وكنا نتناقش حولها في السنوات الأولى على افتتاحنا مكتب المحاماة في المدينة، كانت وهلة صمت أو تأمل، أو لا أدري بالضبط، وكان المطر بدأ يتساقط بقسوة لم نعهدها، وكأن الغيوم تقرحت حتى انكب منها المطر على تلك الشاكلة، ولم تصدر عنه التفاتة واحدة، خرج عن ارتشافه الشاي من فنجانه صوت لذيذ جعلني أجد نفسي، ودون تفكير في الموضوع، ودون أن أتوقع أن يخطر لي السؤال في تلك الليلة بالذات، أسأله . .
لا أذكر بالضبط كيف كان وجهه، ولا كيف كان صوته . . أذكر فقط صوت المطر والكلمات، هادئة مرة . .
قال : «تسألينني الآن عن لحظة لو كان لي أن أمحو من التاريخ ما شئت لمحوتها، كدت أفقد أعصابي فأحملك عنوة إلى بيتي لأجعل من عنادك دقيقاً أبيض، وأنثره على رأس جبل كي لا تجمعيه مرة أخرى وتدمريني باستخدامك الجائر له.
لا أعرف كيف استطعت أن أصمت، ولا أعرف أي قوة تلك التي ملكتها وقتها، أي جبروت جعل منك جبلاً أصم، رفضت أن تسمعي شيئاً أو تقولي، رفضتني دون ذنب دون تهمة ، ما كانت تهمتي في عينيك سوى أنني رجل، لو كنت شيئاً آخر لما لاقيت منك ما لاقيت، كل الأسئلة التي دارت لي كانت تستنطق ذاكرتي عن فعل أسأت لك به كي تشيحي وجهك عني كما فعلت، وكأنما كنت لا أستحق منك حتى استقبالاً لائقاً بضيف ! كنت أعطيك حياتي لأنسيك الدمع الذي حبسته دوماً في عيونك، وكنت أشيعك بالحب الذي سخرت منه وقتها ، كل صباح ومساء من بيتك إلى بيتك، وكنت أُحافظ على نفسي لأحظى باحترامك، كما حظيت باحترام الجميع . .
يومها لم أتوقع أن هروبك من نظراتي لم يكن رداً على حبي بحب خائف، كما أقنعت نفسي المتحرقة على أية إشاعة حول حبك، وأحببتك، عندما قلت «لا» بتلك القسوة مزقني الجرح ، وخفت انتقامي عليك ، كنت أبعد عن طريقك!
تلك اللحظة كانت كالموت البطيء لشخص تعود الحركة، فأنا اعتدت هرب عينيك عن عيني، اعتدت ابتسامة تسرقينها لي من حقدك، واعتدت حبك . . خفت أن أكرهك . . »
وتزوجت.
كان ذلك الزواج خطة مزدوجة لحل أزمتين معاً، ظننت أنني بالابتعاد عنك قد أنسى كل شيء، حبك والجرح، وكان الزواج خير طريق لردم الهوة التي شققتها بيني وبين عمي ، وللمفارقة يا «ندى» إنك كنت سبب الشقة التي بدأت بنقضي للخطبة التي تمت بيني و«سماء» ابنته حين كنا أطفالاً باتفاق والدي وعمي، لم يعرف أحد السبب، لكنني تذرعت بانصرافي عن موضوع الزواج إلى الدراسة، فما كان من عمي إلا أن سافر وعائلته إلى الخليج غاضباً على والدي وخلفته النحس، وأعلن أن زواج أختي «رقية» بابنه «عائد» لن يتم ولو ذبح أمام المأذون، وراودني شعور بالذنب تجاه أختي، وقد كنت أعلم ما بينها و«عائد» من محبة وألفة، حاولت أن أفهم عمي أن لا علاقة لما فرضه عليَّ وعلى «سماء» بما بين «عائد» و«رقية»، لكن لم تفلح أذنه التي من طين في سماع كلمة ولا أذنه التي من عجين . .

عشت ذلك التخبط يا «ندى» لأجلك، كنت أسير في أحلامي حافياً ذليلاً وراءك، فأستيقظ أبكي وأستعيذ بالله مما رأيت في المنام، تزوجتها لأعيد تشكيل واقعي حسبما رأته العرافة في كف عمي، قالت له مشبك بمشبك، وحسب عمي ابنه وابنته أحد المشبكين، وثانيهما أنا و«رقية»، طلب من عمتي وأمي أن تزغردا، ثم أعلن على مسامعنا جميعاً أن لعنة مخالفة ما كتب في كفه ستحيلني إلى نحول الأشباح وتوقعني في علة لا شفاء منها، وأحزان تعربد داخلي حتى أفيق إلى الصحيح وأقول حقي برقبتي!

وحدث أن صدقت نبوءة العرافة، وصدق ما تهجته بين تجاعيد تلك الكف: مشبك بمشبك!!

أنت لم تكوني هي . . وهي عرفت ذلك، كانت ذكية يا ندى، رأتك في عيني دون أن تعرف شيئاً عنك، وقتلتها في الوقت الذي فكرت بك فيه!

آخر صورة لها، تلح على مخيلتي كلما نظرت إلى «رفيق»، جالسة إلى جانبي في السيارة، ومقود السيارة الأسود بين أصابعي، وأنت . . كنت يا «ندى» معنا، في رحمها كنت . . مولودنا الأول!

أخبرتها وأنا أرى وجهك يخرج من اللفة وليدة، إنني سأسمي مولودنا الأول «ندى» إن كانت بنتاً، وقالت تمسح شبح دمعة عن تعرجات الألم في وجهها المتعب:

-هي «ندى»، إذاً!

ومن تكون؟

لم أجب يا حبيبتي، فكيف أقول لها من تكونين فأجرحها . . قتلتها . . قتلتها و«ندى» الجنين، يومها تذكرت لحظة تقدمت لك، تذكرت كيف نعتك بالقاتلة في قصائدي وكنيتك بأكثر من كنية أشفي من خلالها حروقي الداخلية.

لم تكوني تعرفين، لم تقرأي لي يوماً، فأنا منذ رأيتك ما عدت أكتب، فأصبحت قصيدتي الوحيدة، ولوحتي التي ما إن أبدأ في رسمها حتىَ تمتزج اللوحة والرسام معاً . . » . وقربني إلى صدره أكثر منتحباً وأنا أحترق . .

كل ما كان في «رائد» كان يجعلني أتأكد من حبي له لحظة بلحظة، كل العمر الذي قضيته معه انقضى وأنا أتعلم أن لا أفكر في وضع قائمة بما يجعلني أحب «رائد» لكثرة ما كانت تستجد أمور تجعلني ألتصق به أكثر فأكثر!

أحببت فيه توحده مع عالمه، وكأنما كان لا يعرف العيش دون أن يجعل تفاصيل العيش ملائمة تماماً له، كان يفرح كما يجب أن يفرح المرء، ويأكل، ويبكي ويضحك، ويهمس ويصيح ويغني، كما يجب، كان كما لم أتخيل والدي يوماً، حين بدأت أراه بدأت أفكر أكثر به وبأبي وبهما معاً، ولم أعد أفكر في قراءة الذكريات المنسوخة في رأسي لأعرف أبي.

كنت أحادث رائد كي أفعل، أناقشه، وأطيل النظر في عينيه، علني أدخل عالمه من جديد، بعدما طردت نفسي منه ألف مرة!

يوم الرحيل كان يوم زفافه، ولم أكن أعرف بذلك، كانت صدفة بلهاء جرتني لألتقي جارة لي في طريقي إلى المنزل بعد عودتي متعبة من المدينة لأقضي العيد في «الجلمة»، كما اعتدت أن أفعل منذ سكنت المدينة.

وجاءت حياتي أعياد كثيرة كما جاء ذاك العيد! لكنه اختلف عن كل أعياد الأرض! صحيح أن أعياد القرية كانت تختلف عن أعياد الناس، حيث اعتادت القرية أن تجعل من كل عيد عيدين، فتترك كل أفراحها للعيد، لكنه كان مختلفا حتى عن أعياد «الجلمة».

حين جاءتني الدعوة على لسان جارة في القرية، شعرت، ولسبب ما أنا فيه من أمري و«رائد»، أن آخر ما أحتمله هو التظاهر بالفرح! وشعرت بحالة قرف لا مبرر له، إذ تخيلت نفسي وحيدة ذهنياً بين أهلي وناسي، لا أعرف كيف أمط ابتسامة أو كذبة في هيئة ابتسامة، لتطول أكثر وأكثر، وتدوم، حتى تشابه الابتسامة الحقيقية، تخيلت نفسي أصفق مع المصفقين محملقة بالبشر المتحركين بأشكال غريبة عن الفرح في باحة الرقص، وأنا أرى ولا أرى، تلك الأجساد الملتوية مع الإيقاعات الموهمة بشيء ما، لا يمت بصلة أو بأخرى للرقص.

ضحكت فجأة وسط ما تخيلته، إذ رأيتني أقف كالمحاضرة بالجموع، وأقول بصوت أتعمَّد أن يخرج من أعماقي السحيقة، لأطلب بهدوء لا يسمعه غيري أن يأخذ العريس عروسه ويكف عن إقحامي بشؤونهما الخاصة! مالي وعرسه، مالي والرقص المزعوم!

ربما لتكون المفارقة أجمل، لم يكن ثاني العيدين الذي خبرتني الجارة عنه بلؤم سوى عرسه، ولم أقدر أن أبقى في البيت

بحجة أن دعوة العرس لم تصل إليّ منه هو، فعادات المدينة لا تلبس عادات القرية أبداً، أهل القرية هم أهل العرس ولا يصح أن يعاملوا معاملة الغرباء، فتقدم لهم الدعوات خاصة خاصة !!

لا أدري لم شعرت حين رأيته متقوقعاً على نفسه في كرسي العريس أنه لم يكن هو، لم يكن ببساطة عريساً، كان غريباً أكثر ما يكون عن نفسه، وكان لا يعيش تلك اللحظة بالذات في حياته كلها، لم تمر عليه لحظة انطوى على نفسه فيها كما وجدته ليلتها، وتقدمت لأسلم وأبارك، فتلك عادة لا يخلفها إلا حاسد جاحد .

لم أقدر أن أمنع يدي عن الارتجاف، ولم أبارك لأحد بالتوتر الذي باركت له فيه، فقد رأيت في عينيه نظرة قلبتني وأشعلت بي غيرة غريبة، قال أحبك أنت من بعيد، ، قالها صامتاً في ابتسامة دامعة، معتذرة بأدب عن خطئي .

خفت عليه، خفت إن أنا دمعت أمامه أو تركت العرس مسرعة أن يقدم على أي قرار مجنون، وقد تأكدت دوماً في داخلي من أحبال خفية كانت تربطنا ببعض، كأنما هي أبدية لا تقطعها حوادث القدر حولنا، وكنت أعلم كم احترم هذه الروابط وكم صدقها، حتى خشي أن تهون عليه نفسه، حتى اضطررته إلى تشكيكه فيما كان بيننا .

حتى تزوج . .

ما الذي أصابني بعد سماعي تلاشي آخر زغرودة في الفضاء؟

أي قوى سحبت ذلك الدمع خارج عيني!

وما الذي دعاني إلى أن أرمي بنفسي على سرير والدتي وأغرق في بكاء موجع لاسع مجنون، تلك اللعنات التي صببتها علي، على كل ما كان من حياتي ليجعلني واقفة كحجر أمام عواطفي، أي لعنة كنت يا أبي، وأي خوف زرعته فيّ تجاه الرجل لأنك من جنسه ؟!

حالة لا أعرف كيف أصفها الآن، وأنا لا أستطيع استعادتها، حيث صرت زوجة لذلك الشاب الذي تزوج لينسى، فما زاده زواجه إلا تذكراً!

حالة الشياطين تلك التي زرعني عرسه فيها، جعلتني أشعر بتقصير تجاه كل شيء يمت إلى العالم حولي .

جعلتني أصر على التغير جذرياً، وأذكر أنني امتلأت تصميماً على ذلك حتى صرت أحاسب نفسي على أية كلمة أقولها وأية نظرة وأية ابتسامة، لست متأكدة إن كان ذلك ما غيرني فعلاً . .

لقد أصبحت إنسانة أخرى بعدها، أميل إلى العزلة عن البشر، لألتفت إلى اللغة في الروايات، وأوتار قيثارتي المسكينة تحتمل ما أرميها به من فلسفتي وتذمري، ودماري شيئاً فشيئاً مع كل ضربة على وتر من أوتارها، وأقرأ مثل أُميّة اكتشفت فجأة أنها تملك القدرة على القراءة، وخافت أن تكون تلك القدرة معجزة لن تدوم، فصرت أقرأ وأقرأ، دون أن أكف !

كل هذا ولده عرسه، وولدته استفاقتي على الفقد لحظة الحصول على المراد أينما ذهبت، والدي قبل أن أعرفه، وأمي قبل أن تراني أحقق حلمها، و«رائد» قبل أن يعرف بحبي له!

(4)

أتذكر عرسي يا أبي ؟

كنت شارداً يومها ، تتأملني و«رائد» في صمت دامع، وفي العيون ألف سؤال، كانت تعانقني نظراتك بشكل غريب . .

خشيت يومها أن تكون غير راض حتى لحظتها عن ذلك الزواج ، وأنك ما وافقت اقتناعاً برائد، كل ما كنت فيه من ذهول جعل يفضح خوفك وتشبثك بي، وقلت لي بعد ذلك إنني كنت أشبه أمي تماماً في يوم عرسها، وإنك لولا وجود «رائد» إلى جانبي لنسيت نفسك وألبستني خاتمك ظاناً أنني هي «أمينة» أمي .

كنت أرقبك وأنا معه، ولم أتوقع أن يلحظ هو ذلك، كان يبتسم بعطف من يعلم أن لا داعي للغيرة من رجل أب، حتى لو زاحمه على حب امرأته، فهي امرأة ابنة أيضاً، ووجدتني أسحب ما تسح من دمع إلى عيني لأعيد بكاء كل عبرة، ورأيت منك ابتسامة . .

أنا رأيتك فرحاً يغرقه الدمع
ورأيتك تحمل من المشهد قطعاً
وتزين عينيك . .
في وقت رحل الألم مني
ليصل إليك . .
يا واهب شفتي الضحكة

تعال ، نناغي صمت المشهد
كي يضحك . .
ونزلزل كل الكون
بلون الفرح
تعال لتنسيني ضحكتك الغربة
وسنين البعد
تعال . .
ورأيتك تسلمني له بيد راجفة
باكية تنذر بالفرقة
وبكيت . .
لأني خشيت دموعك دوماً
وخشيت بكاءك وقت الفرح
لأنه مرٌّ
لا كدموع الناس . .

أردت يومها أن أقول شيئاً، لكن الموسيقى لم ترحم دمعك وخوفك ، لم ترحم وحدتك وأبعدتني عنك، وكنت أريدك وأريد رائد، كنتما رجلين بروح واحدة تتناقلانها كلما دعت الحاجة، وكنت أبكي لدى كليكما كطفلة ، أحببتكما واحتجتكما معاً . .

ورغم ذلك، رحلت يا والدي، يومها أحسست بالظلم، فأنت وبعد كل الحرمان كنت لي وتركتك لأجل رجل آخر كان يوماً أنت، ويوم رحلت صار آخر . . صار أباً لي قبل ابنه . .

كم كنت مازحتني وقلت إنني سأبقى بعمر رفيق الجنين، طيلة العمر، وإنني لن أكبر أبداً . . وكبرت يا أبي، بل وشخت بعدك . . فما تعريفنا للشيخوخة سوى العجز . . أو هكذا أراها أنا على الأقل، وأنا عاجزة عن رؤيتك، عن الحديث معك، وعن تعريفك بـ «رفيق» الذي تمنيت أن لا يشبهك ، وتمنيت أنا عكس ذلك .

وكم تمنيت أن تكون في البيت معنا . . «رفيق» لم تعجبه القرية في البداية، ولم يحب العيد فيها، خصوصاً أنه ما اعتاد أن يأتي العيد ويذهب والده حتى لو يوماً، نعم فـ «رائد» كثير السفر لطبيعة عمله، لكنه لم يترك البيت للعمل في عيد قبل هذه المرة !

أتساءل أحياناً، وهو يحادث رفيق، كيف كنت ستربيني يا أبي ؟

هل كنت تفعل كما يفعل «رائد»، و تعطيني كل ما يعطيه له؟ كم حسدته على «رائد»، هو أب رائع و«رفيق» ناله، وأنت رائع، ولم أنلك كما يجب، التقيتك على خط النهاية . . واختطفك الموت غدراً . .

هكذا يأتي الغدر في وقت نظنه وقت السعادة ، ونجدنا بعد كل الظن نبكي في ألم . .

في البيت يا والدي كنت تدور تسألني عن كل دقيقة بعدك وكنت أجيب وأنا أبحث عنك في لمسة تركتها على أثاثه أو همسة أرسلتها لجدرانه كي تحفظها عنك، أردت أن أستحضرك بشيء لا شخص هذه المرة، ولست أدري ما الذي دار لي حين قلت لرفيق إنني سأريه البيت الذي تربى جده فيه .

وفتحنا باب المنزل المهترئ بذكرياتك لتقابلنا أتربة التحية وغبار الدخول، كانت كل طفولتك نائمة تحت أكوام الزمان هناك، كنت أخشى أن أرى ما يبكيني .

رفيق كان متحمساً أكثر مني، ونظف البيت معي من زمن غيابك ورائحة رحيلك . . والماضي .

أذكر يوم أحضرتني إلى هذا البيت حين عدت لتتعرف علي، على ابنتك التي رافقتها حتى أول دقيقة من بدايتها مع الدنيا ورحلت عنها صوتاً . .

يومها سألتك في ألم عما أعادك بعد عشرين عاماً . . وعما كنت تريد مني ، كنت غاضبة منك حتى النفور، ومشتاقة إليك حتى العناق، وبقيت على الحياد، لا تركتك ولا عانقتك . .

وكنت أقول ما يجرحك، وأحرص على اختيار أقسى الكلمات وأكثرها ذبحاً لك . .

كنت أنتقم لأمي، لجرحها وألمها ، لكدها طيلة سني تربيتي حتى هدها الإرهاق وسرقها الموت وهي لم تبلغ الأربعين . .
ولانتظارها لأمل ميئوس منه . .
ولصبرها على الذل . .

كنت تستمع قابضاً كفيك على وجهك كأنما تبعد نار حقدي عنه، في الواقع كنت تخفي دمعك والألم عني، لأنك اعتقدت أنني أملك كل الحق بما أقوله طالما أنني عانيت الحرمان دون أن أعرف شيئا عن الحقيقة، يا أبي كنت جاهزة

للحقد فقط . .
كما كانت أمي جاهزة للحب فقط ، حين قبلت بك ،
وأصبحت جاهزة للألم فقط بعدك يا أبي . .
يا أبي . .
في هذه الغرفة . .
فيها ناديتك بأبي ،
وصالحت بما قلت ضميرك ، ووزعت المسؤولية على من أعرف ومن لا أعرف . . لم تخبرني بكل شيء . . رغم خطر حقدي على علاقتنا لم تخبرني بالخديعة . .
كنت تطلب السماح مني وكأنك مجرم تائب يعلم مدى سوء جرمه ، ويطلب السماح طالباً من القاضي الاكتفاء بتعذيب ضميره له !
وأنت ضحية مثلي يا أبي . .
يا هذا الصندوق ما أسكتك منذ زمن ؟ ومن أسكت رسائلك يا أبي؟
أكنت تحضر للحظة أعرفك فيها فأحبك في غيابك كل الحب ، كما كرهتك في غيابك كل الكره؟
أكان حبي لك على خط التلاقي لا يكفيك لهذه الدرجة ، وكنت تتمنى حباً آخر يوازي حقدي ويفوقه؟
في هذه الغرفة يا أبي وجدتك مذبوحاً تنزف حبراً . .
وجدتك والغربة في مقعد ، وتناولتما قدح الصمت معاً ، لم أدر أنا أو أمي عن بحر مالح ، ماتت فيه حياة الماضي العذب ، ومات سؤالك تحت الكذبة ، خنقته . . وبقيت أنا والجرح النازف أنت . . لم تخبرني عن ألمك . . فخبرني . . إن كنت تخاف علي دموعك ، أو كنت تخاف علي تفاصيل القصة ، وأنا كنت الجلاد على حافتها . .
كم أبكيك ولا أملك إلا ضم صورتك إلي وأندم . .
ما أقول الآن لرفيق
ما أجيب سؤاله عنك
صورتك تشبهني
ويشبهني كبرياؤك
وتشبهني الحالة . .
ويسأل عن دمعي
وكيف
يعاد إلى عيوني ،
هل من سبيل
لإرجاع نحيبي
والصوت
إلى حنجرتي . .
وقلت
نعم . .
إن عاد أبي . .
وبكيت كطفلة . .
حضنتني صورتك . .
وتركتك تتحدث أنت . . قرأت إعصارك وتأرجحت بصمت بين أيادي المطر العاصف منك ، لم تكن لتراني يا أبي وأنا يأتيني شتاؤك فجأة ، لا معطف يقيني وحدتك والبرد ، ولا مظلة تقيني من دمعك . .
ما كانت غايتي منك بأكثر من ابتسامة تحمل كل حنينك ، وضمة ، أنساب على أبوتك فيها ، وأغيب بصدقك عن عالم كذب محموم ، يا أبت ، يا وقت الفرح المسروق ، متى كنت لترحل؟ متى عرفتك حَياتي كي تخرج منها؟ ومتى كان كل ما تقول الآن؟ يا رجلاً في عيونه يسكن الصدق غريباً كأني ما عهدته ، يفترش المساحة ما بين جفنيه ، وتنطقه الرموش عبرات ساخنة مذبوحة . . كم نبكي ، يا . . يا أبتِ كم نصرخ ، لا من ألم ، بل للصدق . .
فهل هذا عدل؟

---

* كاتبة فلسطينية تقيم في القدس .

(1) فصول من رواية للكاتبة بالإسم نفسه ستصدر قريباً .

أمير هذا العالم
غريغوري بتروفيتش

ترجمة وتقديم: فخري سليمان *

رواية «أمير هذا العالم» تنتمي إلى عالم الكتب الموجهة إلى جمهور معين من القرّاء، جمهور من المتخصصين في حقول معينة من العلوم الإنسانية. تمتد أحداث هذه الرواية على مساحة تصل الى أكثر من مئتي صفحة من الحجم المتوسط، وتتوزع على ثلاثة عشر فصلاً، ومقدمة، وخاتمة، ومراجع. وقد رأى بعض النقاد فيها كتاباً لم يسبق لأحد أن كتب مثله من قبل. وهناك، من النقاد، من يرى أن هذه الرواية فريدة في نوعها ومتميزة، إلى حد أنه أطلق عليها صفة الفرادة والتميز والاستثنائية، ليس فقط على المستوى الروسي، وإنما على المستوى العالمي. ولعل الحرفية العالية التي امتلكها المؤلف هي الأساس الذي مكّنه من إنجاز عمل أدبي مبدع حاز على هذه الضجة ذات الصدى الواسع. وهناك نقّاد آخرون كانوا قد اعتبروا هذه الرواية تحدياً غير مسبوق للواقعية الاشتراكية، وبالتالي تكون قد شقت طريقاً جديداً باسم الحداثة الاشتراكية. ولعل في تاريخ ظهور هذه الرواية ما يشي بالملامح التاريخية والسياسية التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

تنتمي هذه الرواية الى عالم الكتب المحظورة؛ فمن جهة تعاملت معها السلطات السوفييتية بحزم، ومنعتها، على اعتبار أن كاتبها غادر الاتحاد السوفييتي، واحتل مواقع متقدمة في جبهة أعداء الاتحاد السوفييتي. وبالتالي اعتبرت هذه الرواية من الأدب الحزبي المعادي للسوفييت. وبهذا يمكن القول: إن هذا الاتجاه، اتجاه الحداثة الاشتراكية، قد حاول أن يشق طريقه في أرض بكر.

يعيدنا هذا التعبير «الأراضي البكر» إلى الحديث عن الكتاب الذي أصدره ليونيد بريجنيف تحت هذا العنوان «الأراضي البكر»، ويسحبنا، عنوة، إلى تذكر ذلك المؤلف الدعائي الذي قام بوضعه الزعيم السوفييتي الشهير. وبغض النظر عن التفاصيل الصغيرة التي قد تكون مهمة في مجال آخر غير الذي نحن فيه الآن، إلا إننا نقول: إن الحيوية المتدفقة التي تنبض بها رواية كليموف «أمير هذا العالم» ليست موجودة، حتى في أدنى مستوياتها، في مؤلف الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي «الأراضي البكر»، مع أن المؤلفين ينتميان إلى حقبة واحدة. وما يهمنا الإشارة إليه الآن، هو أن كتاب كليموف، رغم المستوى الحرفي العالي، والقيمة التاريخية التي يمتلكها، ورغم البعد الإنساني واللمسة الأدبية الواضحة السطوع التي تخللته، وبغض النظر عن العمق، وسعة الأفق الثقافي، والإلحاحية السياسية لهذا المؤلف، رغم كل هذا لم يجد من يهتم به في بلده روسيا ولم يسمح له بأن يرى النور أو يطبع، وإنما على العكس فقد تمت ملاحقته وتجاهله ومنعه. وفي المقابل رأينا كم كان الاهتمام المبالغ به والاحتفاء الكبير المفتعل بمؤلف الزعيم السوفييتي. ففي المرحلة البريجينيفية لم ينجح النظام السياسي فقط، في فرض رؤاه السياسية والاقتصادية، وإنما تمكن ذلك النظام من فرض ظلاله على أرض الثقافة والإبداع من خلال ابتلاع الأصوات الأخرى أو دفعها إلى الخارج عنوة أو بالتهديد والإرهاب. و كليموف نموذج واضح لهذا النوع من الأدب الذي كان محظوراً في ذلك الزمن.

نعم. في ذلك الزمن لم تحظ هذه الرواية بفرصة الولادة الطبيعية على أرضها؛ وإنما صدرت في المنفى.

رواية «أمير هذا العالم» تنتمي، أيضاً، إلى عالم المؤلفات التي كان يطلق عليها في روسيا أيام انتشار الواقعية الاشتراكية وسيطرتها صفة «*Tam Izdat*»؛ يعني باللغة العربية اصطلاحاً شاع استعماله كناية عن الأدب الروسي أو السوفييتي المنشور في الخارج. ومعنى هذا الاصطلاح الحرفي هو «نشر هناك». لكن من الضرورة التنويه إلى أن استعمال هذا المصطلح لا يتم من خلال لفظه ونطقه بهذا الشكل البسيط الذي قد يتبادر إلى الذهن بشكل تلقائي. فمن أجل نقل المعنى الحقيقي لهذا الاصطلاح، من أجل إيصال المعنى الحيوي والديناميكي، كان لا بدّ من الاستعانة بحركة معينة، إما باستعمال الحواجب ورفعهما إلى الأعلى أو الغمز بإحدى العينين. مثلاً لو لفظ هذا الاصطلاح هكذا مجرّداً من الإشارة لبقي جامداً دون معنى. وبالتالي جاءت هذه الإشارة لتشحنه بالمعنى المبطّن و المطلوب، المعنى السرّي الذي يفصح بقوة، لكن بشكل سري، و بقوة مضيئة كالبرق في الليل البهيم، فالمعنى يشير إلى أن العمل الأدبي المعيّن قد صدر هناك (في الغرب).

وقد ابتكر المواطنون السوفييت عدداً من الاصطلاحات الشبيهة بفعل الإحساس بالرقابة الدائمة عليهم في المرحلة التي تلت حكم ستالين، وامتدت إلى ما بعد ولادة وترسيخ عهد الرئيس غورباتشوف والبيريسترويكا والشفافية والكثير من الشعارات والممارسات والبرامج التي ولدت في منتصف الثمانينيات من القرن المنصرم. ولعل هذا الجو المتوتر هو الذي ساد في مرحلة سيطرة الاشتراكية الرسمية، الاشتراكية المفروضة عنوة رغم أنف الشعب. و ها نحن نرى، من أجل فهم هذا العمل الأدبي و أي عمل أدبي آخر، يلزمنا أن نستوعب المرحلة التاريخية والظروف الاقتصادية والاجتماعية التي ولد فيها.

وبناء على هذا، فإن رواية غريغوري بتروفيتش كليموف وليدة المرحلة الاشتراكية الإرادوية التي سادت في العهد السوفييتي. وفي ذلك الوقت الذي سبق غورباتشوف، وتحديداً في عهد بريجنيف أو ما أطلق عليه المرحلة البريجينيفية، سياسياً والواقعية الاشتراكية أدبياً وثقافياً. ومن أجل الحفاظ على سيطرة هذا النهج واستمرار بقائه في دول الاتحاد السوفييتي، وكنموذج لا بديل من استمراره في نسج الحكاية الرسمية التي لا ينازعها منازع آخر، على الأقل أمام العالم، وفي ظل سطوة النظام الرأسمالي الإمبريالي، كان لا بُدّ من وجهة نظر الكريملين، أن تستمر القيادة السوفييتية في فرض تصورها هي لآفاق التطور السياسي والإجتماعي والاقتصادي والثقافي، من خلال الابتعاد، ما أمكن، عن وسائل الإقناع، واتباع وسائل القهر والقمع والتخويف والتخوين لكل من يحاول التعامل مع النظرية الثورية والتطبيق بشيء من الإبداع والتصور الخلاق.

تعرضت هذه الرواية للمنع في الغرب، كما تعرضت للحظر الشديد في الشرق(الاتحاد السوفييتي). وقد نشرت على حلقات في صحيفة روسية بالغرب. وأخافت هذه الرواية الصحافة الروسية في الغرب. يبدأون بطباعتها، ثم، فجأة يتركونها، وكأنها ستسبب حريقاً ما قد يهدد دار النشر أو هيئة التحرير فيولّون عنها الأدبار.

وأول بدايات طباعتها كانت ملغّزة ومغوية. صحيفة «بلدنا» الأرجنتينية تبدأ بطباعتها، وقد وجدت هذه الرواية ما يكفي ويزيد من الاهتمام. لكن النشر توقف فجأة قبل أن يكتمل الفصل الأول، ما ترك انطباعاً لدى القرّاء وكأن هناك شيئاً ما.. شيئاً جدّياً وراء هذا التوقف. فمن منعها؟ ولماذا؟ محرر صحيفة «بلدنا» مات بسرعة، وحمل السرّ معه إلى القبر. وهناك من ردّد قائلاً: المسألة واضحة. والكتاب «منحوس». وهكذا كما نرى، فإنّ النشر كان يرتبط مع حدوث مشاكل حادة في أكثر من صحيفة. و تساءل البعض عندها قائلاً: «لعل هذه الرواية منحوسة»، وإلاّ فلماذا مات محرّر الصحيفة الذي وافق على نشرها؟ وهو، فقط، الذي يعلم بالسبب. لكنه حمل السرّ معه إلى القبر، فاضطرت الصحيفة إلى التوقف عن نشرها. لكن، إذا كان السبب الذي أوقف نشرها في الغرب هو الإيمان و التشاؤم والتفاؤل والنحس والخوف من الرقم 13 الذي يظن البعض أنه يحمل الشؤم، فهل كذلك تعامل معها عالم الشرق؛ العالم الاشتراكي أو الشيوعي؟ هل هناك، في عالم الشيوعية العلمية مكان لأفكار من هذا النوع؟ وهل الأسباب التي دعت الغرب إلى حظر هذا الكتاب هي الأسباب نفسها التي دفعت الاتحاد السوفييتي الى حظرها، أيضاً؟

ولعل في ذلك بعضاً من الأسباب التي دفعت بالكثير من الكفاءات والطاقات الخلاّقة والمبدعة الى الهجرة من الاتحاد السوفييتي. لكن، الى هنا والأمور عادية ومعروفة وليس فيها

أي جديد. والجديد هنا يعود الفضل في اكتشافه إلى الرواية التي بين أيدينا، وهو أن تكون هناك خطة مدبّرة، تكمن وراء تلك الهجرة، التي كانت تبدو أحياناً وكأنها هجرة طوعية هروباً من جحيم القمع والتسلط، والبحث عن الحرية المفقودة في الاتحاد السوفييتي، وأحياناً كانت كتهجير قسري مفروض على بعض العناصر. ناهيك عن استغلال الحركة الصهيونية ودخولها على خط الصراع بين النظامين العالميين ومتاجرتها واختلاقها قضية اليهود «المحتجزين وراء جدران الستار الحديدي». فهل من المستبعد أن تكون القيادة السوفييتية ليس فقط، على علم بأهداف الضجيج المفتعل والصراخ الصهيوني تباكياً على اليهود الروس، وإنما استعملتهم كسلاح يشبه الجراثيم في الحرب الكيماوية؟ وبالتالي من الممكن أن تكون القيادة السوفييتية قد فكرت بالهجرة كسلاح فعّال ضد الغرب.

يقول بروفيسور علم الاجتماع النفسي في جامعة وود هيفينسكي الدكتور ساخاروف: «بقدر ما عمل كليموف في نظام الحرب النفسية الأميركية من خلال التحاقه وعمله في مشروع هارفارد، فإن روايته تعد نتاجاً وتحليلاً لهذه الحرب النفسية. ومن يوم إلى آخر كانت صحف العالم تمتلئ بنتائج ما سمي بالحرب النفسية بين النظامين العالميين. لكن القليل من الناس فهموا ما يكمن وراء هذا المصطلح الغامض. فما هذا؟ وإذا كانت الحرب البكتيرية تجري بمساعدة الجراثيم البكتيرية واستخدامها كوسائل لنشر الأمراض المعدية في صفوف العدو، فإن الحرب النفسية، من وجهة النظر العلمية، هي حرب بمساعدة الأمراض النفسية. دور الميكروبات يقوم به هنا المرضى النفسانيون الذين لا يمكن ملاحظتهم كالميكروبات».

فالتميز والتفرّد من أهم صفات هذا الكتاب، الرواية. والاستثنائية والفرادة ليستا فقط، في موضوعها، وإنما في الأسلوب والتنوع والعمق الثقافي والتماسك الصلب والمتين الذي يشد هذا العمل الأدبي. فمن النادر، بل لم يسبق أن تمكن كاتب من إنجاز عمل أدبي شيق وجذّاب كهذه الرواية. ولعل الجاذبية التي تسري في عروق هذه الرواية من بدايتها وحتى صفحتها الأخيرة تأتي من الأسلوب الأدبي المنسوج من روح علم النفس، وعلم الاجتماع، و تاريخ الدين (اللاهوت)، والسياسة، والحرب النفسية، والعمل المخابراتي، في كل متماسك وحيوي في الوقت نفسه.

الاستثنائية والتميز والتفرد بالنسبة إلينا، نحن في علاقتنا مع الآخرين في هذا العالم. وسنكون كمن يتخلى عن دوره. وبالتالي من الناحية الأخلاقية، على الأقل أمام الأجيال القادمة، لا يليق بنا أن نذير ظهورنا أمام هذا الواجب الحضاري. إنها مسؤولية أخلاقية، وعلينا أن لا نهرب من مواجهتها. ولعل الدافع المهم الكامن الذي يدفع الى ترجمة هذه الرواية ونقلها إلى اللغة العربية هو ما توفره من أرضية تصلح للحوار بين ثقافتين مختلفتين.

والإقدام على هذه الخطوة (الترجمة) يعني السماح والتحضير للحوار. لأن الحوار تعبير عن فهم جديد ومعاصر لمتطلبات العالم المعاصر؛ عالم القرن الحادي والعشرين، قرن التحولات المذهلة في مجال العلوم والاكتشافات الفذة في حياة البشرية، وتطور وسائل الاتصال العالية التقنية، كالكمبيوتر والإنترنت والبريد الإلكتروني في ظل العولمة المفروضة على الأطراف .. إلخ. ولا يمكن أن نقوم بالحفاظ على هويتنا دون الدخول في حالة حوار مع من حولنا. فالحوار خطوة ضرورية لا بد منها، وليس الانغلاق والانعزال والدعوة بالويل والثبور لإنجازات العلم الشيطانية؟!!

وبالتالي، نحن أمام مسؤولية أخلاقية تتطلب منا الإقبال على الحوار مع الآخرين وليس الانكفاء على الذات.

***

قد نتفق مع الدكتور س. ب. نوفيكوف، أستاذ الأدب السوفييتي المعاصر في جامعة ستراتفورد، حين يقول: إن هذا المؤلف، الرواية، هو كتاب خارق الفرادة والتميّز. وفي هذا التمايز والتفرّد ما يجعل من «أمير هذا العالم» نوعاً محرماً من الكتب. وكما يقال إن الثمرة المحرّمة تعني في الوعي والوجدان الطعم الحلو والمذاق الشهي، وبالتالي فإن في منع كتاب ما يعني الترويج المسبق له أمام القرّاء.

يقول أستاذ الأدب السوفييتي المعاصر في جامعة ستراتفورد الدكتور نوفيكوف. س. ب.: هذه الرواية خارقة. فهي ممكن أن تنال الإعجاب، ومن الممكن أن لا تناله، لكن لم يوجد ما يشابهها حتى الآن، ولم ينشر بمستواها. وكليموف كتب كتاباً لم يكتب مثله. وهذه الكلمات ليست فارغة. لقد فتشت مكتبة الكونغرس في واشنطن، باعتبارها واحدة من

أضخم المكتبات في العالم، ولم أجد فيها كتاباً بموضوع كتاب رواية غريغوري بتروفيتش كليموف «أمير هذا العالم».
أما بروفيسور علم الاجتماع النفسي في جامعة وود هيفينسكي الدكتور ساخاروف. ب. ف، فيقول عن هذه الرواية: «الآن، في أدب الغرب، توجد موضة الحداثة. أما في الاتحاد السوفييتي فكانت الواقعية الاشتراكية. ومن وجهة النظر هذه تعد رواية أمير هذا العالم من نوع الحداثة الاشتراكية. نعم. حداثة اشتراكية حقيقية، حيث لا يستطيع ممثلو الفن النمطي (المنمط) بعد الثورة، الحديث في روسيا».
وكما يحب الحداثويون ممارسة البلاغة اللفظية واختلاق كل الكلمات الحديثة أو اشتقاق المصطلحات الجديدة فإننا نجد في رواية «أمير هذا العالم» تعابير حديثة لم تكن موجودة سابقا، فمثلاً: كان يقال عن أطباء الأمراض التناسلية أو الأمراض النسائية «أطباء العذارى»، أما الآن بعد رواية «الأمير» فيقال عنهم «أطباء الانحطاط». فهل لا يمكن اعتبار هذه المصطلحات حديثة؟.
ويتابع الدكتور ساخاروف فيقول: «يحب الحداثويون، ومن ضمنهم السوفييت، استخدام الكتابة المبطنة أو التعبير من تحت السطور. والسرّ أن هذه الكتابة تصدر عن المرضى النفسانيين «الشواذ»، وهم فقط من يفهم هذا وعلى الفور، أما الإنسان العادي فلا يلاحظ شيئاً. ورواية الأمير لا تختلف عن الحداثة في هذا، وفيها كتابة من تحت السطور».
ولد غريغوري كليموف في مدينة نوفوتشيركاسك. والده دكتور متخصص في علم الوراثة. أنهى المدرسة وحصل على الدبلوم بامتياز، أو كما يقال: «بميدالية ذهبية. تخرّج من معهد نوفوتشيركاسك الصناعي كمهندس كهربائي، ثم أنهى الدراسة العليا في معهد موسكو للطاقة. وفي الوقت نفسه أنهى الدراسة في معهد اللغات الأجنبية في موسكو. أرسل بعد ذلك الى الأكاديمية الدبلوماسية العسكرية في موسكو.
وعند الانتهاء من الخدمة في الإدارة العسكرية السوفييتية في برلين، وبعد أن تسرّح من الجيش، وبدلاً من العودة الى موسكو انتقل الكاتب إلى ألمانيا الغربية.
عمل كليموف في مشروع هارفارد في مدينة ميونخن.
والمعروف عن مشروع جامعة هارفارد أنه أجرى بحوثا نفسية واسعة على المهاجرين الجدد القادمين من روسيا، أو كما كان يقال «السوفييت الشواذ». وقد عمل في هذا المشروع أفضل الخبراء الأميركان المختصين في الشؤون السوفييتية. وقد رصدت الملايين من الدولارات من أجل هذا المشروع الهادف الى تقويض الاتحاد السوفييتي في العام 1951- 1949.
وفي أثناء العمل في هذا المشروع كان قد تعرّض المئات من السوفييت إلى بحوث نفسية وتجارب واختبارات وأسئلة تتطلّب إجابات لا تنتهي. وقد تركزت الأسئلة على موضوعات خاصة دقيقة جدا، إلى حد البحث والغوص في المسائل العاطفية والجنسية، حيث سجّلت إجابات المستجوبين على أشرطة التسجيل. وتوصلت تلك البحوث إلى استنتاجات كشفت عقداً نفسية بمساعدة الكثير من التجارب في مجال التحليل النفسي (حسب مدرسة التحليل النفسي الفرويدي). وإحدى تلك العقد التي تم اكتشافها كانت عقدة سرّية أطلق عليها اسم «عقدة لينين».
كان الدور الرئيسي في مشروع هارفارد للبروفيسور ناتان ليتس مؤلف كتاب «العمليات الموسكوفية» (1937- 1935)، تلك العمليات الغريبة، حيث جرت تصفية كل الحرس اللينيني مطلقين عليهم اسم «الكلاب المسعورة».
واستند مشروع هارفارد على تلك العقدة السرّية. وحسب المعلومات التي انتشرت في ذلك الوقت، أن الأميركان العمليين قرروا احتضان الشيطان نفسه في تحالفهم ضد الشيوعيين، وبالتالي تم اختيار الكوادر المناسبة في مشروع هارفارد لأجل البدء بالحرب النفسية بين الشرق والغرب منذ ذلك الوقت. وحسب المعلومات، كان التمويل من المخابرات المركزية الأميركية.
ترأس كليموف سنوات عدة واحداً من هذه المشاريع الخاصة بالحرب النفسية، وكان كليموف رئيسا لاتحاد المهاجرين الروس الفارّين من الاتحاد السوفييتي بعد الحرب العالمية الثانية، وكان رئيساً لتحرير مجلة «الحرية» باللغة الروسية ومجلة «ضد الشيوعي» باللغة الألمانية.
لقد أثار اسم كليموف ضجة وصخباً على صفحات الصحافة الأوروبية أكثر من نشاط (C.I.A)، ولهذا سامحوا كليموف من وجهة نظر مشروع هارفارد، رغم أنه كان لديه شيء ما مما كان لدى لينين.
الأحداث الرئيسة للرواية هي حملة التصفية، والتطهير الكبرى التي قام بها ستالين ضد الثوار الحقيقيين؛ ضد الحرس اللينيني، ضد رفاق الدرب في الثورة الاشتراكية. ولعل من

يقرأ الرواية وأحداثها وطريقة ربط المعلومات الكثيفة والمتنوعة بعمقها وشموليتها سيفاجأ بسعة إطّلاع كاتبها وقدرته على تجيير هذا الكم الهائل من المعلوَمات العلمية والأدبية والتاريخية في مجالات الطب والدين والفلسفة والأدب والسياسة، وغيرها من المعارف الإنسانية المختلفة وقد يفاجأ القارئ ويصيبه الإعجاب بقدرة الكاتب على تسجيل ونقل مشاعر النفور والتقزز من مشاهد الإعدامات والتصفيات التي تعرّض لها أبطال ثورة أكتوبر الاشتراكية على أيدي رفاقهم الستالينيين. وعلى الرغم من مضي الكثير من السنوات على صدور هذه الرواية، فإن القارئ يجد نفسه وجهاً لوجه دون أن يتمكن من التقاط أنفاسه أمام حالة مرضية متعطشة للاستبداد والقمع. ولعل الأهمية التي نراها في هذه الرواية تنبع من إمكانية تكرار الكثير من الصور في أي مجتمع يمر في ظروف إنسانية مشابهة. فمن كان يعلم أن ما واجهه يوليوس قيصر، كمشكلة السلطة وعلاقتها بممارسة الديمقراطية، قد يتكرر في أي مجتمع آخر؟ إنه المجتمع الإنساني الذي يتشابه في بعض الإشكالات، ويختلف في بعضها.

يدور الحديث في رواية «أمير هذا العالم» حول عملية التطهير الكبرى، عندما صفّى الثوري «ستالين وأشباهه» - المرضى نفسياً - رفاقهم وأقرباءهم تحت وهم وجود مؤامرة من الجميع والشك بالجميع. ولهذا يقول الفلاسفة أن الشيطان يميل للتصفية الذاتية. يقول بروفيسور علم الاجتماع النفسي في جامعة وود هيفينسكي الدكتور ساخاروف: «تناولوا من جيوبكم ورقة من فئة الدولار الأميركي الواحد. ستجدون على إحدى جهاتها هرماً. احسبوا كم درجة لهذا الهرم. وستتأكدون من أن هناك 13 درجة. وعلى الجهة الأخرى صورة لنسر. ستشاهدون أن إحدى قوائمه تحمل 13 سهماً. وفي قائمته الثانية 13 ورقة. وعلى رأسه 13 نجمة خماسية وشعار من 13 حرفاً. فما هذه الشهرة للرقم المشؤوم؟ أحدهم يقول: إن هذه هي الـ13 ولاية أساسية. ويقول آخرون إن هذا هو ختم نفس أمير الإنجيل الذي أصبح ديمقراطياً في أميركا ومهندساً يبني هذا الهرم الاجتماعي. وإذا بحثتم بهذا الشكل في تمثال الحرية فستعرفون أن هذه الهدية المقدمة من فرنسا إلى أميركا كانت من جمعيات سرّية فرنسية سميت إنسانية من البعض، وسماها آخرون شيطانية.

وفوراً يبرز سؤال ديالكتيكي: ما الذي يجمع الإنسانية والشيطان؟ وأية علاقة بين الحرية والشيطان؟ وأي سرّ هناك؟ وإن أجبتم على هذه الأسئلة فإنكم ستحصلون على علامة مقبول في تخصص العلوم الاجتماعية العليا».

فعلاً، ماذا يدور خلف ظهر تمثال الحرية الآن في أميركا؟ أليست الجريمة الفظيعة؟ ألا تدافع المحاكم بانتظام عن حق المواطنين؟ أما المجرمون فمن الإنسانية تركهم يعيثون فساداً تحت حماية القانون الأميركي، الذي يحمي اليهود وأدواتهم التي تنهب العالم. ويمكن بسهولة أن تشاهد الصحافة الأميركية وهي تزين صفحاتها بجرائم القتل التي يقوم بها المهووسون جنسياً. وهناك القاعدة المنتشرة، هي التعاطف مع القتلة وليس مع القتلى. هل هذه هي الإنسانية؟

رواية «أمير هذا العالم» تعبر بتكثيف واختزال عن أشكال متنوعة من الوعي الاجتماعي، ومتداخلة في تعقيد متشابك يعكس حالات المعاناة والألم التي يمكن للروح الإنسانية أن تعاني منها.

(المترجم)

الفصل الأول
الملاك الهادئ

عندما كان مكسيم رودنييف ولداً صغيراً، قبل الثورة، كانت أمه تجبره أن يصلّي للرب. وبلا اكتراث يتمتم: «أبانا . . .»، ثم يتوجه للرب برجاء خاص: ربي، من فضلك، اجعلني كبيراً وقوياً. فبالأمس، أمسكني، مرة أخرى فيدكا الأحول في الفناء المجاور وضربني. اجعلني، يا رب، أستطيع ضرب الجميع، هكذا، وبيدي اليسرى وحدها، بخنصري وحده «فقط. وقد كرر هذا الرجاء بعد كل عراك مع فيدكا الأحول، الذي عاش بالجوار، واعتبر الأزعر على كل المحيط، ومفكراً، اقترح مكسيم، بهمس، في المقابل: إذا أردت، يا ربي، من أجل هذا فقصر من حياتي قليلا . . .».

أما بوريس، الذي ولد بعد الثورة، فمن طفولته أظهر مدخلاً عملياً للحياة. فإذا شبع، قالت له أمه بجدّية: «أنظر يا بوبكا(1)، ما تبقى في الصحن، هذه هي قوتك. وإذا لم تأكل ما تبقى، فإن البنات سيضربنك». وقد صدّق الصبي

هذا. وكان جاهزا للَحس الصحن، فقط كي لا تتمكن منه البنات، ويكنَّ أقوَى منه. وقد بقيت هذه العادة، عادة تنظيف الصحن لديه طيلة حياته.
وتبين لاحقاً أن مكسيم يكتب بيده اليسرى.
وقد شاكس الأخ الصغير الأكبر قائلاً: هيه. أنت أعسر! أرني ارم حجراً باليمنى؟
فقالت الأم بحزم: بوبكا! كيف تجرؤ؟
هكذا عاقبه الرب، كي لا يرجو الرب برجاء غبي.
ومع أنه أعسر، فقد أنهى مكسيم المدرسة بامتياز، ثم التحق بكلية التاريخ في جامعة موسكو. وحلم أن يصبح بروفيسوراً. ومع العظمة البروفيسورية وكبريائها فقد أحب مكسيم، أيضاً، أمر الناس. ولهذا التحق بسرعة بالحزب، وتقدم حتى لسكرتارية المنظمة الحزبية للكلية.
وبغض النظر عن هذا، فإن مكسيم أنهى الجامعة بنجاحات باهرة. وهكذا برز بوظيفة سكرتير المنظمة الحزبية للكلية، أي عمل حسب التخصص، مدرّس تاريخ. وتسلم مكسيم تعييناً عبر القناة التنظيمية للخدمة في الإدارة الاستثنائية الحكومية برتبة مخوّل كامل الصلاحية.
جلس مكسيم خلف الطاولة وعبأ الاستمارة. ولكي يتماشى مع الزمن وواجباته كتب عن والديه بشكل مبهم: «كادحين».
لاحظ بوريس ذلك فقرر أن أخاه يتعارض ووالده.
ـ الأب ليس عاملاً، وإنما دكتور. قال بوريس: لماذا تكذب؟
ـ المسألة ليست بمستوى عقلك. أجاب الأخ الأكبر.
وفوراً لوحظ أن الأعسر رمى الأصغر بضحكة، وقال:
كل شيء يعمل باليسار. يا رضيع.
رضيع!
كان مكسيم رقيقاً وجافاً. لون عينيه رمادي فاتح، ودائماً ما افتخر بشعره المتموج. شفتاه ضيقتان متوترتان وسلطويتان، لهذه النتيجة، أكد أن لنيتشه الفم نفسه، وكذلك شابنهور، عندما كان طالبا اهتم مكسيم بالرياضة الخفيفة، فهو يسبح بشكل جيد ويتزحلق على الزحّافات بمهارة.
أما بوريس، فكتفاه عريضتان، أسمر. يفضل رفع الأثقال وإجراء التمارين.
الكبير كان انفعالياً، في حين كان الصغير هادئاً.
أحب مكسيم مغازلة النساء الغريبات، كما قال: السيدات. حتى أنه فسر السبب: إنه نجاح مضاعف، وبلا أية مسؤولية.
ولصغر سنه، لم يفهم بوريس، ماذا يعني هذا. لكنه عارض فوراً.
وحسب هذا، تزوج مكسيم، أيضاً، من امرأة غريبة.
وبعيني بوريس توجد نقيصتان لامرأة مكسيم (أولغا).
أولاهما أنها لم تتخرج من معهد، وإنما من مدرسة متوسطة لطحن الحبوب.
ثانيتهما أنها تركت زوجها الأول. ومع كل هذا كان بوريس سبباً غير مباشر لهذا الزواج.
وهي كالعادة، مرتدية شالاً صوفياً أبيض. ولا يوجد شيء خاص. قامتها عادية... لكن الوجه.. كان كوجه مادونا. بجمال فوق أرضي نادر، تتصرف كقادم من عالم آخر. ضجرة دائماً. لا تضحك أبداً. وفقط تبتسم.
فقط لديها دم السمك – قالت إيرينا – ولهذا تحس دائماً بالبرد. حتى أنها لا تستطيع النوم ليلاً. وحتى تتدفأ تنام معي في نفس الفراش. وبسرعة ولدت لهما بنت. وكان واضحاً أن مكسيم سعيد، وأنه يحب زوجته. وإذا ما تباهى فبامرأته فقط. ونادراً ما كان يذهب إلى بيت أهله، وحصل على ترقية، وصار مشغولاً. وكل وقت الاستراحة كان يقضيه مع عائلته.

الفصل الثاني
ست الحسن

للجناح مدخلان، أحدهما من ناحية البلكون، وهو الرئيسي، والآخر من جهة المطبخ وهو ثانوي.
مرة، في إحدى ليالي الشتاء، استيقظ بوريس على قرع ملحّ لجرس المدخل الرئيسي. ومن دون أن يفكر من يكون، نهض بوريس وارتدى فروة، وسأل: من هناك.
-إنه أنا... افتح. سمع صوت الأخ الأكبر.
وشبه سكران من النوم، نزع الأخ الأصغر المسمار. حلّ السلسلة، وأدار المفتاح بالقفل الإنجليزي، ثم فتح الباب. في الفناء ثلج، برد وقمر. وعلى خلفية الثلج المضاء بالقمر، كان مكسيم بمعطفه العسكري الطويل، وجهه غير واضح، ويضم إلى صدره صرّةً كبيرة.

ومن دون الدخول إلى العتبة ، أعطى بوريس الصُرة : امسك، بحذر .
أحس بوريس بشيء طريّ، دافئ يتحرك بين يديه ، ففهم أنه طفل ملفوف ببطانية . أعطه للأم، هامساً، قال مكسيم . فهي تعرف ما العمل . . . استدار ومشى على الثلج المنسكب عليه ضوء القمر . وفي الشارع هدر صوت سيارة .
في البداية، اعتقدوا أن مكسيم معتقل، لكنه كان يتصل كل يوم، ويستفسر عن البنت الصغيرة، مجيباً عن الأسئلة: لا تسألوني عن شيء، وكأنه كان ينام بملابسه . . وبعد أسبوع ظهر في بيت والديه بوجه ضامر غير حليق وعينين حمراوين، وبلباس غير مكوي، وحذاء متسخ .
نزع معطفه، وبصمت ذهب الى سرير ابنته الصغيرة، حيث تنام .
قل ماذا حصل يا مكسيم؟ قالت أمه بوجل .
- لا شيء، غمغم، أريد العيش معكم .
وماذا عن أولغا؟
- هي، هنا لن تكون .
لماذا؟ ماذا حصل بينكما؟
كان يجلس على طرف السرير، ناظراً إلى الطفلة، لم يسمع شيئاً .
ثم تمتم مكسيم بصوت غريب أجش :
قتلت نفسها . . . قبروها . . . ولا تسألوا أكثر . مكسيم .
وبعد فترة سأله بوريس :
بماذا أنت منشغل تحديداً ؟
- ببساطة، تهمني بعض الأشياء .
- أي أشياء؟
- هذا لا يتعلق بك .
- ولماذا يتعلق بك أنت؟
- هذا هو عملي .
- وأنت، ممكن أن تكون . . . ؟ وبحركة مشحونة بالكثير من المعاني، ضرب الأصغر جبهته بإصبعه .
وبتعب، فرك الأكبر عينيه الملتهبتين وتثاءب .
- كلا، لا تقلق على هذا، ولا تضايقني .
وهكذا مضى الشهر يتبعه الشهر، ومكسيم صامد هكذا وراء بحوث القرون الوسطى . وبعد السهرة يتفحّص شيئاً ما . ومن جديد يتابع البحث في الكتب الطبيّة، التي أخفاها عن الجميع . ومن وقت إلى آخر يغمغم بهدوء : «حسنا . هكذا! لكن، بكلمات أخرى . . . »
في منتصف الصيف، وعندما دبغ عنب الثعلب، اندفع مكسيم إلى طفولته . دخل في خميلة أعشاب ضارة بحذائه المتقشّر . ثم جمع من هناك أعشاباً ما، وجففها في مقلاة . جلس خلف الطاولة المليئة بالكتب البلهاء المتراكمة . أغلق الشبابيك والأبواب، ثم وضع الأعشاب المجففة في علبة صفيح ووضع عليها سبيرتو حاراً، فارتفع من علبة الصفيح دخان رمادي أزرق . جلس المفوّض وشمّ بخّور أكوام الزبالة .
- أنت . أجننت تماماً؟ سأل بوريس .
- م . م . م . . .
- ماذا تشمشم هناك؟
- نبات ست الحسن .
- تفو . . يع . . سيؤلمك رأسك .
- لا بأس . ألن تخرج الآن؟
- كلا .
- إذن، ابق قريباً، لأي طارئ . انظر ماذا سيحصل معي . فقط لا تتنفس هذا الدخان . هذا سم .
- حسناً . أخبرني فقط منذ البداية، لماذا يلزمك هذا؟
- يلزم اختبار شيء ما، ودون أن ينقطع عن عمله انحنى على كتبه المفتوحة : ها اقرأ .
كان مكتوباً بخط مكسيم على صفحات صفراء، بفعل الزمن، وصف : كيف يحضّر السحرة من نبات ست الحسن كل العقاقير . وبقربها وصف كيف يتلذذ السحرة بالسم النتن في حفلة هرج يغنّون حول النار المشتعلة .
في البداية قرر مكسيم تجربة أثر دخان ست الحسن بخبرته الخاصة- حتى الجنون- وطالما لم ينطرح في السرير .

الفصل الثالث
حجر الحكماء

توجه مكسيم في الفترة التالية من برنامجه، ليس إلى القرم أو إلى القوقاز في بعثة علمية، و إنما إلى مواقع الموت شمال سيبيريا خلف القطب . وقد نظّمت (ل . ش . ح . د .)(1) كل

شيء. ووضعت البعثة تحت تصرّف مكسيم؛ الطائرات القطبية. لكن، النقطة النهائية للمهمة تمت بمساعدة المرشدين والأدلاء على زحّافات الأيائل. وبمرافقة العلماء والمساعدين بحث مكسيم، الرحّالة، في المنسيين وراء القطب الأعزل، المقطوعين عن العالم ومن لم تصلهم السلطة السوفييتية. أما التموين والأكل فكانا محلياً من البدائيين.
أحضر مكسيم معه إلى موسكو، للذّكرى، من هذه البعثة مجموعة أيائل مطرّزة بالخرز ومجموعة تحف مرسومة من ألوان صارخة، ودفاً بلدياً قديماً، ومصاليل نحاسيّة، وأشكالاً محفورة من أخشاب غامقة لأصنام مشوّهة وأنواطاً برونزية، وعلامات سرّية، رمز سلطة الساحر، وكومة كاملة لجواهر ثقيلة مع أساور من عظام.
جفّت طبقة من الأوساخ الداكنة على وجوه الأرباب المكسّرة. وانتبه مكسيم، بحذر، إلى ذلك الصنم الأكثر اتساخاً، الأكثر قدماً وتشوهاً بكل الاحترام الواضح.
– هيه، أنت لو صلّيت له. نصح بوريس.
– لا داعي. وفي هذا قيمته.
– لماذا؟
– هذا ليس وسخاً، وإنما دم جاف. أثناء التضحية يمسحون هذه الأرباب بالدم.
– دم أيّ أيل؟
– نعم، الآن الأيائل؟
ــ عمر هذا الصنم عدة مئات من السنين. وقد أظهر التحليل الكيميائي أنهم مسحوه بدم بشري.
لكن بوريس لم يفهم شيئاً. نعم. ولم تهمه أسرار شامانات سيبيريا، حيث اقتربت امتحانات تاريخ الحزب البلشفي.
أنت ظلامي، فلا تعيقني.
الآن اهتم مكسيم أكثر من أي وقت مضى بمصادر الماركسية اللينينية الكلاسيكية. تجذبه الراحة أحياناً، فيستلقي على السرير ويأخذ جزءاً من أشعار بودلير «أزهار الشر» قبل النوم. وكتب، هنا مرة أخرى معلّقاً: يدور بذنبه... وواضح فوراً... هكذا، هكذا... ولهذا سامحه يارب. على صدر المستأجرة... يعني وسماً أسود...
– من تمسك من ذنبه أنت، هناك؟ سأل بوريس عبر الباب.
– الشيطان. رد مكسيم.
– عندما تمسكه دعني أرى. تمازح الصغير.
لن أمسكه فقط، وإنما سأركب عليه، أيضاً. ردّ الأكبر برصانة.

الفصل الرابع
المفوض والأمير

بسرعة، بعد أن أصبح مكسيم رودنييف دكتوراً في العلوم الاجتماعية، ومفوضاً كامل الصلاحية من ستالين في مسائل القوى الخبيثة، قتل كيروف الرجل الثاني في الحزب بعد ستالين. وقد قتله شيوعي شاب يدعى نيكالايف.
كان صباحاً شتائياً بارداً. بث الراديو، دون توقف، ألحان شوبن الجنائزية. جلس مكسيم على الطاولة وشرب الفودكا بدلاً من الشاي. تصفّح قضية نيكالايف وغمغم: آها.. آ... لديه كعب حصان مثل بايرون... نحن نعرف هذه الأنماط البايرونية... أبطال هذا الزمن، ليس تاميرلان، تاليران، قائد المناشفة مارتوف، روزا لوكسمبورغ... غوبلز... كل هؤلاء ذوو الأقدام العرجاء معلمو دستويفسكي.
جلس بوريس في الغرفة يدرس تاريخ الحزب، ثم فتح الباب، وسأل:
ـ هيه، أنت ياذا الكتب السوداء، ماذا هناك؟
ـ ماذا. ماذا، غمغم مكسيم، عدا هذا لديه صرع... وزوجته تكبره كثيراً.. حتى أنها هجرته.. إنه مثال نموذجي.
طاولة مكسيم كانت قديمة وبسيطة. أما الآن فعلى هذه الطاولة المتقشّرة وضعت ثلاثة تلفونات؛ الأبيض للمكالمات العادية، الأحمر خط مباشر مع الكريملين، والأسود خط خاص مع القسم الثالث عشر (ل. ش. ح. د.)
ـ وهكذا، المسألة واضحة. انحنى على التلفون الأسود – لأن من يتكلم هو الشيطان الأعرج.
مرتشفاً الفودكا، بدأ دكتور العلوم الاجتماعية يملي عبر سمّاعة الهاتف.
أمر اعتقال باسم القسم الثالث عشر (ل. ش. ح. د.) لكل العرج والفكح في الاتحاد السوفييتي. أولا كل العرج الحزبيين. لكن، فقط، العرج والفكح بالولادة. فقتل

كيروف كان كالإشارة التي أذنت ببدء عملية التطهير الكبرى . في البداية اختفت صور الناس المشهورين عن الجدران ، أبطال الثورة ، البلاشفة القدماء ، قادة الأمس في الحزب والدولة . بعد ذلك ، ظهرت أسماؤهم في الصحف ، كأعداء للشعب ، كمخرّبين وجواسيس ، عملاء للخارج . ثم أرسلوهم– الأبطال السابقون – الى الموت في سراديب (ل . ش . ح . د .) أصبح مفوض أمن الدولة رودنييف يعمل على فترتين في اليوم – أي على امتداد ست عشرة ساعة في اليوم . وغالباً ما ينام في مكان العمل . أما إذا عاد إلى البيت ، فتفوح منه رائحة الفودكا ، ويجلس صامتاً شارداً على العشاء .
نظر الأب رودنييف إلى صحيفة «الإزفستيا» ، وتمتم بغير رضى عن التقرير الدوري حول عمليات أعداء الشعب .
ـ فقط الشيطان يعلم ما هذا؟
ـ نعم الشيطان يعرف عمله ، أومأ مفوض أمن الدولة ، دون أن يرفع عينيه عن الصحن . توجد حدوتة قديمة : الشيطان يعد بالسلطة والمجد ، لكن يلزم توقيع اتفاق معه . . . وهكذا . . يطلب الشيطان الآن مقابل ذلك كمبيالة . . . وأنا سآتي بالمحاسب .
ـ لكن ، هؤلاء الثوريين ناضلوا لأجل مستقبل أفضل . . قال الأب .
قرأ الأب في الصحيفة بصوت متشكك مسموع :
«جرى التسمم باستخدام نضّاحة سموم بطيئة المفعول بقوة ملح الزئبق . وقد حقنوا لهم السجاد ، الستائر والأثاث . ووصلت هذه السموم ، الى الدم عبر الرئتين ، ودمرت ببطء صحة الضحايا ، وأوصلتهم إلى الموت ، وكأنه يحدث بأسباب طبيعية . . . » .
قرأ الأب الكلمة الختامية لمدعي نيابة الدولة فيشينسكي :
ـ «يجب إعدام كل هؤلاء ، أعداء الشعب ، كالكلاب المسعورة» .
ـ قاض غبي . قال الأب .
ـ يا ربّ ، شهقت الأم . أي رعب هذا!
ـ الثوريون بعد الثورة عناكب في علبة . قال دكتور العلوم الاجتماعية . وسيتصارعون على السلطة طالما لم يأكل أحدهم الآخر . فمن يقرأ أرشيف المعارضة ، فسيتضح له ، أن أنشط من حضرّ إلى الثورة كان المناشفة .
أعاد الأب الصحيفة وتنهد :
ـ مع كل ذلك ، أنا لا أصدق هذه الاتهامات .
ـ نعم هنا جزء من الحقيقة . ابتسم مكسيم بالتواء . وإذا قلت لك كل الحقيقة فسيكون تصديقك أقل . طلب لينين في ذلك الوقت أن يكون الحزب حزباً من الثوريين المحترفين . وكل السرّ في أن الثوري المحترف ليس بشراً عادياً ، وإنما هو نوع من البشر الخصوصيين .
ـ أي خصوصيين؟
ـ نوعية خاصة من هؤلاء الناس . . . بعقد خاصة . . .
ـ غريب ، وما هذه العقد؟
ـ أكمل دكتور العلوم الاجتماعية ، شرب كأس الفودكا ، ورفع إصبعه بأستذة وقال : «من هنا نبدأ . أترى . . لذلك السبب أطلق عليهم أبالسة ، إذا كانت في الإنسان تلك العقد ، عندها يتحول الإنسان الى إبليس أو شيطان . ويبدأ بأعمال لا يعلمها إلا الشيطان . . . أتفهم؟»
« يبدو أن مكسيم ، ثمل ، لهذا عاد إلى ولعه مرة أخرى ، بالحديث عن القوى الخبيثة» . قال الأب بحذر .
ـ إحم . تصديق هذا صعب فعلاً .
ـ نعم . لكن الواقع هكذا . وعندما يعتقلون هؤلاء الشياطين سأخضعهم لاختبارات طبية صارمة . . . تحاليل .
ـ أي تحاليل .
ـ من جميعه ، ومن ضمنها الإفرازات الداخلية ، ولدى الجميع القصة نفسها .
ـ لهذا قيل في الكتاب المقدس : إن مالكهم هو الشيطان . والشيطان يطمح دائماً للسلطة .
في المساء التالي ، قرأ الأب كلمات الندم الجديدة لأعداء الشعب . فهز رأسه وزمجر :
« لكن ، هؤلاء بلاشفة قدماء ، اجتازوا جميع سجون القيصرية والمعتقلات ، ولم يندموا أو يتبرأوا أبداً» .
تكونت اللجنة الشعبية للأحوال الداخلية من إثني عشر قسماً . وتباهى مكسيم ، لأن قسمه سريّ وغير معروف ؛ القسم الثالث عشر ، حتى العاملون في الأقسام الأخرى يجب أن لا يعلموا به . وقد اتخذ قرار التصفية والتطهير باجتماع المكتب السياسي بتاريخ 1935/ 05/ 13 . لكن مكسيم أكد أن كل خطط التطهير كانت مهيأة من معهد البحوث العلمية . وبشكل عام وضعت القيادة بمسؤولية قسمه الثالث عشر (ل . ش . ح . د .) لقد سحبتم الكثير جداً :

قال الأب باستياء . – هذه عملية معقدة – برّر دكتور العلوم الاجتماعية . إنها تشبه الغرغرينا أو السرطان . وأحياناً يتطلب قطع اللحم الحي .
بعد الثورة، عندما وضعوا قانوناً جنائياً جديداً في الاتحاد السوفييتي، فإن كل الجرائم السياسية كانت قد قدمت تحت المادة 58 . وبهذا الشكل فإن كل ضحايا التطهير أعداء الشعب وقعوا تحت نفس المادة 58 . وضل مكسيم في قرونه الوسطى حين قال :
– بوبكا، أتعرف لماذا المادة 58
– ماذا؟
– هكذا، اجمع 5 +8 فكم يكون .
– 8+5= 13
وهكذا، كما ترى 13 . . . وهذا ليس صدفة، وإنما رمز مقصود .
فمن وضع القانون، علم، أن كل الجرائم السياسية تقريباً تأتي من هذا الجذر .
– أمي، هل عمّدتموني عند ولادتي؟
– طبعاً، أجابت الأم .
– أما أنا فلم أعمدها . . أعطيك سيارتي، وسافري إلى بيريوزوفسك، عمّديها حتى ولو بعد موتها .
ومن بين أصابع المفوض سقطت دمعة رجل على الطاولة : اعملي كل شيء لإنقاذ روحها .

الفصل الخامس
العدم حيث لا شيء

منذ بدأ مكسيم في منصبه بـ (ل . ش . ح . د .) كان دائماً يتباهى بأنه يعمل مع عضو اللجنة الاستثنائية الشهيرة لعموم روسيا زينايدا هنريخوفنا أوربيللي . وشهرتها جاءت، لأنها من أصل نبيل قديم . فهي ليست تلك الأميرة، ولا نصف الأميرة . هربت وعمرها سبعة عشر عاماً من معهد سمولني للفتيات النبيلات . ذهبت للعمل في اللجنة الاستثنائية، حيث أعدمت بيديها . وعنها ترنموا بأغنية تقول :
«هيه، أين ولدت أيتها التفاحة ؟
في قبضة زينكا ستقعين ولن تعودي» .

وفي وقت واحد، كانت مسؤولة اللجنة الاستثنائية للمحافظة، ولوعيها الطبقي، أعدمت بيديها . بعد ذلك تبين أن قسوتها لا تطاق في اللجنة الإستثنائية . ولولا قليلاً، وتدخل تروتسكي، وبناء على الإنسانية البروليتارية لأعدمت، إلا أنهم كتموا الأمر .
تعجّب بوريس كثيراً، عندما سمع عنها لأول مرة . لقد كانت فتاة جميلة جذابة جداً . كانت ذات وجه جميل وعينين ذكيتين، ممشوقة القدّ وطويلة القامة . لها يدان ناعمتان، وتتميز بحركات سريعة متقنة وواثقة . تحس وكأنها، كانت بالفعل أميرة في معهد الفتيات الكريمات . لكن هذه الفتاة، كانت في الزيّ العسكري ، والعروة القرمزية انعقدت بخشونة، على شكل معين، جنرال (ل . ش . ح . د .)
ودائماً ما قابلها بوريس في شقة مكسيم الجديدة . وباهتمام ساعدت أولغا بشؤون البيت، أو اهتمت، بلطف ورقة، بالطفلة .
أحيانا ما، وضعت أولغا الطفلة في عربة، وتنزهت في حديقة بتروفسكي برفقة زينايدا هنريخوفنا، وحملت زجاجة الحليب . وأحياناً ما رافقهم شقيق زينايدا هنريخوفنا . وهو مخلوق غريب الأطوار أطلقوا عليه لقب «بطل البيريكوب» .
وإذا بدت زينايدا هنريخوفنا جميلة جداً، فإن شقيقها كان نادر البشاعة .
عندما بدأت حملة التطهير الكبرى توقف «البطل» عن الخروج من البيت . في البداية أخذوا منه البيت . فسكن في الفندق القريب . وإلى الفندق حمل معه شيئين اثنين؛ بيانو ضخماً للحفلات وصورته الخاصة، بحجم الحائط وهو على الحصان الأبيض . يجلس طيلة اليوم وبإصبعين يعزف على البيانو بشيء غير معروف ويستمتع بالنظر إلى صورته .
ـ ماكس، قال بوريس، لأجل ماذا سجنوا «البطل»؟
ـ لقضية . تمتم مفوض أمن الدولة .
غيّر كل العاملين في اللجنة الاستثنائية علاقتهم بقضية البطل، وبعد ذلك ماتوا هم أنفسهم . يعني لا يوجد شهود . عدا ذلك فإنّ هذه القضية كانت سرية جداً . ولم يعلن في أي مكان عن إعدام البطل . ولهذا كتبوا الكثير عن مآثره في كل الصحف .
زينايدا هنريخوفنا خجلت من أخيها وأعجبتها الفكرة . احتفظوا بكل الوثائق والأوسمة الثورية للبطل المعدوم .

وأعطت زينايدا كل هذا للأخ وأتلفت الباقي . وحسب صور البطل الميت ، غيّر الأخ شكله بما يتوافق . وترك فروة شعره تنمو . وحجز بدلة عسكرية لنفسه ، مثل التي كانت للبطل . في ذلك الوقت المظلم بعد الثورة كان هناك الكثير من الشواذ . ولم يندهش أحد من شيء . مثل الممثل الهاوي الحالم بأدوار البطولة .

وقريباً من هذا كانت هناك صدف حلزونية بنية الحجم بحجم حبة الجوز . الجوزة في إطار من سلك بلاتيني رفيع على شكل قرط . مثبت بها جدول بخط كاتب اللجنة الشعبية للأحوال الداخلية : «قضية النجمة الزرقاء» معروض رقم 127- د . مصادر أثناء تفتيش المواطنة أوربيللي زينايدا هنريخوفنا .

ـ ما هذه اللعبة يا ماكس؟ سأل بوريس .

ـ خنفسة . رد المفوض .

ـ أية خنفسة ، إذا كانت هذه حلزونة .

ـ حسب رطانتهم تستبدل هذه الحلزونة بالخنفسة .

ـ وبأي شيطان استسلم لك هذا الخنفس؟

عندما سجن الشاب الثوري تروتسكي في سجن أوديسا ، استغل وقته في التثقيف الذاتي . وقرأ كومة كتب كان قد استلمها بالقائمة . ولاحقاً وصلت إلى أيدي القسم الثالث عشر مكتوبة بخط يد تروتسكي . فالكتب كلها لم تكن أعمال كارل ماركس التي سخر منها تروتسكي ، وليست كتب تاريخ الشيوعية ، وإنما هي كتب نظرية ، وتطبيق نفس الجمعيات السرية التي يسميها البعض إنسانية وآخرون شيطانية ، كان تروتسكي قد درسها بدقة ، وحتى لا ينسى وضع لنفسه ملخصاً كبيراً من ألف صفحة .

فإذا أكد الباحث عن الباحث عن الرب بيردياييف أن إبليس وعدو المسيح موجودان طبعاً ، من وجهة النظر الفلسفية المجردة ، فإن محققي القسم الثالث عشر تناولوا هذا من وجهة نظر المادية الديالكتيكية ، واعتبروا بجدية أن إبليس وعدو المسيح ليسا موجودين فقط ، وإنما يتزاوجان .

نعم ، لقد كتبوا عن زيجات مختلطة كهذه بين إبليس وعدو المسيح ، ونتيجة لزواج مختلط كهذا كان الشاعر إيفان ستراتّك ـ الميت . عدا ذلك كان مدمناً على المخدرات ، وزوجته عرجاء ، وقد عملت هذه العرجاء بعد الثورة في اللجنة الاستثنائية(3) . بعد ذلك العمل المتوتر حطّمها الشلل ، ومن ذلك الوقت صارت مربوطة إلى السرير .

وجاءت أنباء مؤكدة بأن الزوجة المرّيخية استلقت على السرير ، وكانت تعملها تحت نفسها . أما زوجها المستقبلي فقد فكان يركض حاملا لها قعّادتها لتبول بها . وهرباً من هذه المشاكل كان يلجأ إلى الكوكايين .

لكن هذا ليس كل شيء ، فمع أنها محطّمة بالشلل ، عانت هذه الزوجة من شبق جنسي شديد . وقدم لها زوجها ، الحب ، بتضحية ، العشّاق .

غير حلقة غورجييف في النجمة الزرقاء ، كان هناك فرع آخر ، وهو حلقة ثيوصوفية ـ الذين يبحثون عن السعادة بمساعدة تقليب الطاولات وتحضير الأرواح .

أحد أعضاء هذه الحلقة كان والد الجميلة أولغا جورج غاير . وهو شاب من الألمان البلطيقيين . وهنا ، صورته في شبابه . شاب جميل جداً في زي التشكيل القيصري . وهذه زوجته دورا مازوركين . كانت امرأة كفاحية ، لصة صافية . فإذا اهتم الأب بتقليب الطاولات فإن الأم اللصة كانت مولعة بالبلشفية وعرفت لينين شخصياً .

آهـا . فكر بوريس : حلاق نسائي . مهنة مناسبة . فهو الذي ينظف خلف آذان السيدات . ويهمس في أذنها : اسمحي لي أيتها السيدة بأن أقوم بدور زوجك إذا سافر بعمل؟

وعندما علم مكسيم بهذا . . لم يكن سعيداً . عندما تستبدلك زوجتك بحلاّق كهذا ، وأعرج ، ثم أخرج مكسيم من قضية النجمة الزرقاء وكل ما له علاقة بهذا البطل الحلاق .

وعلى الغلاف المقابل لملف قضية النجمة الزرقاء كتب بخط مكسيم :

«عندما يتحدث يقول الكذب . على طريقته ، إما أنه يكذب وأبو الكذب ، فنعم . وكيف لا يكذب بهذا الوضع؟ لهذا يكذب الجميع . ظاهرة نموذجية نمطية» .

الفصل السادس
الكاردينال الأحمر

بعد تصفية القيادة الحزبية ، وصلت حملة التطهير إلى الجيش الأحمر . ولم يفقد الجيش الأحمر ، في كل تاريخه المكافح ، من جنرالات ومارشالات وكبار ضباط ، مثلما فقد في زمن حملة التطهير التي قامت بها اللجنة الشعبية للأحوال

الداخلية .
جرّدوا الأبطال الأسطوريين للحرب الأهلية من الأوسمة والميداليات والرتب . ثم كتّفوهم . وحتى لا يصرخوا وضعوا في أفواههم قطعاً مطّاطيّة، وقادوهم إلى دهاليز الموت بمقر ل . ش . ح . د . أو الى سيبيريا .
قالوا إن المحكوم عليهم بالموت سيقوا إلى تحت الأرض، وأطلقوا على كل منهم طلقة في قذاله . وحتى لا يصدروا ضجيجاً، لم يطلقوا عليهم من مسدسات عادية، وإنما من أسلحة ذات عيار صغير، كما يطلق الصغار على الغربان والفئران . وفي مكان ليس بعيداً فتح الباب، حيث تمددت الجثث . وفي الليل حمّلوا الجثث، ونقلوها إلى خارج المدينة وحرقوها في مقبرة واحدة وسووا الأرض . ثم كتبوا تحذيراً من خطر الإصابة بالحمّى السيبيرية . فالاقتراب أصبح ممنوعاً .
فهم الناس هذا، وتحدّث كل على طريقته :
الأب رودنييف لم يكن أبداً من مؤيدي السلطة السوفييتية، ورفض الالتحاق بالحزب قائلاً : إنه طاعن كبير على هذا . لكنه، دائما ما يؤيد الذين تعرّضوا إلى الإهانة والإذلال . ولهذا، فإنه، وهو يقرأ الصحف الآن، كثيراً ما يتمتم :
– إعدام كل جنرالات الجيش الأحمر . . هذا جنون .
– صحيح تماماً ـ وافق مكسيم . بين العقل والجنون توجد علاقة متبادلة . وكلما ابتعدت أكثر كان الحبر . وفي نقطة معينة يتشابهان . وهذه إحدى ألاعيب الرفيق إبليس .
ـ كمتخصص في علم الوراثة، أنت لا تعرف هذا . وأنا دكتور العلوم الاجتماعية، يجب أن أعرف هذا وغيره وغيره . فهذا ليس علم اجتماع عادياً، إنه علوم اجتماعية عليا . أتعرف أيها الدكتور بعلم الوراثة، إنه من وجهة نظر العلوم الاجتماعية العليا : أن بعض المواليد الجدد لديك، كان أفضل لهم رميهم في سطل الزبالة فوراً ؟
– تفو ! قال الأب
– هيه، ماكس، لماذا أخذوا هذا البلشفي؟ سأل بوريس .
– حسب القانون الماركسي الأول ـ دمدم مكسيم .
– حول وحدة وصراع المتناقضات؟
– ولماذا أخذوا إيفان سترانك؟
– لأجل التروتسكية والثورة الدائمة .
– وما هذا؟
بلا رغبة، قال مفوض أمن الدولة : إنه من وجهة نظر العلوم الاجتماعية العليا يعد مازوخياً، أي يكون مهاناً ومذلاً، حيث تطلّب مرضه أن يكون . أما زوجته فكانت عضواً في اللجنة الاستثنائية، كانت سادية . وهؤلاء الناس ينجذبون بعضهم إلى بعض، وهؤلاء تكتظ بهم الثورات، حيث يبحث الساديون عن مازوخيين . وبعد الثورة سيتابع هؤلاء الناس الشيء نفسه، الثورة مستمرة، يعني الفوضى والعدمية، نفس طريقة بيرديايف - لا شيء - العدم . كل هذا وكان تروتسكي يعرفه بشكل رائع، وهو الذي قال بالثورة الدائمة، والذي اختار تابعيه، ليس بمميزات سياسية، وإنما بعلامات بيولوجية نفسية .

الفصل السابع
ثعبان وسيف

كلما عنفت وقست حملة التطهير، ازدادت عمليات بوريس التفتيشية في غرفة مسؤول القسم الثالث عشر (ل . ش . ح . د .) محاولاً حل لغز أسرار هذه الحملة التطهيرية . وعلى طاولة مكسيم وضعت دائماً نتف من الصحافة الدولية، حيث كتب الكثير عن مطاردة السحرة في الاتحاد السوفييتي، معلنين غضبهم من هذا، ولم يكن أحد يفهم شيئاً .
أثناء واحدة من عمليات التفتيش هذه، عثر بوريس على ملف أصفر مع توقيع : « قضية رقم 69 / ل . ب . قياصرة الروح الإنسانية» . تذكر بوريس وهو يتصفّح قضية «النجمة الزرقاء» وصرخة روح مكسيم الحزينة : آه، لو علمت بهذا سابقاً! فكم من الحزن والتعاسة، فقط، لأنني لم أعلم بهذا . وهذا بعد اكتشاف مكسيم أن زوجته الجميلة الميتة، مع أنها بدت كملاك هادئ إلا أنها بالفعل كانت مهجّنة، ليست نصف ملاك ولا نصف مرّيخية، إنما خليط الشيطان وعدو المسيح .
عندها اهتم مكسيم : لماذا تكتب الصحافة قليلاً عن هذا؟ ولماذا يصمت الكتّاب والشعراء . ولماذا لا يقومون بواجبهم الوطني، تحذير المواطنين من الخطر، من ناحية الشيطان وعدو المسيح؟ وإذا كتبوا، فلماذا ولسبب ما، دائماً، ليس حتى النهاية؟ عندها أعطى مكسيم معهد البحث العلمي

(ل . ش . ح . د .) أمراً لإجراء بحث خاص بهذا الموضوع . أطلق على الكتّاب والشعراء منذ زمن لقب قياصرة الروح الإنسانية . وفي الزمن السوفييتي سموهم مهندسي الروح الإنسانية . وفي الملف الأصفر كانت نتائج الآثار عن هؤلاء ، قياصرة الروح الإنسانية .

الفيلسوف ديمقريط ، أحد مؤسسي المادية ، قال مباشرة : إن الإنسان ذا العقل الصحيح لا يعد شاعراً حقيقياً .

الفيلسوف الشهير أفلاطون ، أحد مؤسسي المثالية الموضوعية ، كتب في كتابه «الدولة لبناء المجتمع الشيوعي» ووضع شرطاً لهذا : طرد كل الشعراء خارج هذه الدولة .

«فقراء الشعراء» ، فكر بوريس .

ولأجل الظهور بالموضوعية ، أقرّ مختصو القسم الثالث عشر أن أفضل شاعر روسي هو بوشكين ، وكان هذا استثناء شاذاً عن هذه القاعدة . فقد كان عبقرياً صرفاً «عبقرياً شمسياً» . إنسان طبيعي تام . لكن ، متبع نصائح الفلسفة القدماء . واعتبر القسم الثالث عشر أن الشعر مبدئياً هو علامة غير طبيعية ، وأنه يلزم إبقاء الأذن منتبهة مع الشعراء .

فمن منهم صحيح : الشعراء أم الفلاسفة؟ فكّر بوريس . كل هذا بدا غريباً ، ملتبساً وغير مفهوم . ولاحقاً ، تذكّر النكتة اليهودية الحاذقة وحسب هذه النكات ، إذا تطلّب حل أية مسألة حساسة وصعبة ، فإنه يلزم فقط يهودي ذكي ، يعمل كل شيء بسرعة وخفة .

الحواري الثاني للقسم الثالث عشر الدكتور نورداو زيودفيلد ، الذي أثار ضجة بكتابه «الانحراف ، الانحطاط» ، حيث فصّل حتى العظام ، كل قياصرة الروح الإنسانية في القرن الثالث عشر : نيتشه ، شوبنهور ، تولستوي ، زولا ، فلوبير ، بودلير وإبسن وهكذا . ووصل إلى نتيجة محزنة من وجهة نظر الطب أنهم كلهم فاسدون ومرضى نفسياً وروحياً . ومن هذا الاكتشاف قلق الدكتور نورداو نفسه .

لكن مالكي الروح الإنسانية ، مع أنهم مرضى روحياً ، فقد جلسوا بهدوء على قواعدهم .

الحواري الثالث للقسم الثالث عشر كان الدكتور الشهير سيغموند فرويد أبو التحليل النفسي ، الذي ثبّت الأمراض النفسية قاعدة ترتبط بها التشوهات الجنسية ، وبالعكس . لهذا إذا عرف أحدهم فسيعرف الآخر .

وغير ذلك أكد فرويد أن شيطان الانحراف (الانحطاط) يختفي في مكانين : في الرأس ، ثم في سروال الإنسان . لكن في الرأس لا يمكنك النظر ببساطة ، أما في ما تحت السراويل فسهل . عندها يمكن الحكم ماذا يجري في رأسه . وكما ترى ، هكذا ممكن اصطياد المجرمين السياسيين .

أول ما قاموا به هو أنهم نزعوا السروال عن الإنساني الكبير ليف تولستوي الباحث عن الرب ، الذي طرد من الكنيسة بفضيحة ، وهو الكونت اللامع الذي سماه لينين نفسه «مرآة الثورة الروسية» .

وكي لا يكون هناك أي تهور ، لتعطى الكلمة لتولستوي نفسه ، الذي كتب في مذكراته الخاصة بتاريخ 29 نوفمبر 1815 التالي : «لم يسبق لي أن أحببت امرأة . . لكنني أحببت الرجال دائماً . . أحببت الرجل دون أن أعلم ما هو «الإلتياط» ، مثلاً : أردت أن أخنق دياكوف بالقبل والبكاء» . وكتب تولستوي ، أيضاً ، في اعترافه التالي : «شعرت أنني غير صحيح روحياً» . وفي هذا الوقت ، كتب الكاتب الروسي العظيم دستويفسكي ما يلي : «سمعت حول تولستوي أنه جُنّ تماماً» . وبهذا رد تولستوي أنه نفسه (دستويفسكي) مريض وكل أبطاله ، أيضاً ، مرضى . وبهذا أشتبه أن المرض ليس بالمعدة ، وإنما بالروح .

غريب ، فكر بوريس . يرمي دستويفسكي ملاحظات مظلمة كهذه ؛ بخصوص العدد (13) ، تولستوي خلّف (13) ولداً .

مع حملة التطهير في البلد ، انتشرت رجعية سوداء . أغلقوا أفواه الكتاب اليساريين .

-كل هذا بالدقة ، وحسب القانون الديالكتيكي ، بخصوص وحدة وصراع المتناقضات كمحرك للعمليات التاريخية . يعني - الرفيق كارل ماركس الرب في الشيطان - لكني الآن سأرى أين الرب و أين الشيطان .

وهنا أصبح مسؤول (ل . ش . ح . د .) يتأسف بصوت عال أن كارل ماركس لم يقع بيديه . ولو وقع فسيقضمونه في القسم الثالث عشر ، مثل العميل الإنجليزي المخرب .

كان لينين محقاً عندما قال : إن إنجلترا هي - شرموطة عالمية - وهي عملت دائماً ضد أوروبا القارية . وفريدريك إنجلز موّل كارل ماركس دائماً وباستمرار . فمن جاءته هذه النقود . من رأسمال إنجلز الذي كان في بريطانيا .

وبدأ جنرال التفتيش يشتم مرة أخرى بما لا يكتب . ونظر

بعيني مجنون إلى النافذة الفارغة، وصب شتائمه المقذعة بمشاعر صادقة، وبعبارات وصوت وكأن هذه الشتائم ليست بلا معنى، وإنما عزائم سرية. وكل هذا على الساحرات والسحرة وكأنه يصفّي معهم الحساب.

الفصل الثامن
قضية المثقفين

يقولون عن التنفيذ القضائي للجنة الشعبية للأحوال الداخلية التالي: ليوجد الإنسان أولاً، وسنوجد له مادة لنتهمه على أساسها. وهذا ما تؤكده مكتبة الكتب السوداء لمكسيم، حيث خلط في كومة واحدة كل الهراء؛ وبعد ذلك حاول ربط هذا الخليط بالعالم المعاصر.

جلس في غرفة مكسيم اثنان من موظفيه المقرّبين في القسم الثالث عشر. أحدهم كان عقيداً في الخدمات الطبية للجنة (ش.ح.د.)؛ إيفان فاسيليفيتش بيكوف بروفيسور في العلوم النفسية، نحيل، وعلى العروة لمعت الأفعى الملتفة حول كأس السم؛ رمز الحكمة الطبية.

والثاني، كان عقيد الخدمات التقنية في (ل.ش.ح.د.) بيتيريم دوبروبرافوف، بروفيسور في تاريخ الأديان والعبادات. رجل شاب. منفتح، بخدّين أحمرين، ولحيته عريضة جليلة. ضخم وبمسدس كبير. وعلى عروته لمعت شارة الخدمات التقنية؛ بلطتان متصالبتان، تذكّران ليس برجال الإطفاء، ولا بمحاكم التفتيش القروسطية.

ـ اسمعوا، قال بوريس، أية علاقة للجنة الشعبية للأحوال الداخلية مع أتلانتيدا؟

ـ علاقة قوية جداً، أجاب العقيد دوبرونرافوف. وفي هذه الحالة ليس بقدر ميريجكوفسكي، فهو باحث نموذجي عن الرب. وتحت ذريعة البحث عن الرب فإنهم يمجّدون الشيطان. يقام البحث عن الرب مع الساحرات.

ـ اسمحوا لي، لكن ميريجكوفسكي كان متزوجاً من الشاعرة زينايدا غي بي إوس.

ـ هكذا. حتى أنها كتبت، حيث ذكرت أنها لا تعرف أين «هو» و أين «هي».

ـ وما هذا؟

ـ عندما يبدأ الإنسان بالخطأ أين «هو» وأين «هي» - رفع العقيد إصبعه محذّراً - فمن المسألة تفوح رائحة الشيطان. وهذا - إعذرني يشير إلى (ل.ش.ح.د.)

وَهكذا، وصل القسم الثالث عشر الى جان دارك. في العام 1429 سمعت هذه الصبيّة أصواتاً غامضة تخبرها أن عليها رسالة إنقاذ فرنسا. وارتدت زرداً ودرعاً، وأخذت بيدها سيفاً، وجهّزت جيشاً فرنسياً مقاتلاً ضد إنجلترا، ونجحت بتحرير مدينة أورليان. ولهذا سموها عذراء أورليان. أو أورليان العذراء. وبسرعة وقعت جان دارك بأيدي الأعداء. وحسب كلمات المخطوطات مثل نبيّة الكذب المتعاملة مع القوى الخبيثة - الساحرة، المارقة، المرتدّة، الفاجرة، وحكم على هذه الفتاة العذراء بالعذاب حتى الموت.

انتقلت مكتبة مكسيم عبر أساس تاريخي غريب إلى المعاصرة بشكل الأرشيف الخدمي. وهناك ملف بلصقات كبيرة عن جدة الثورة الروسية السيدة كولونتاي. ومع أنها ابنة جنرال قيصري كانت واعية طبعاً، مع أنها في سن الطفولة انضمت إلى عمل البلاشفة السرّي، وساهمت بنشاط في الثورة.

- الحمامة شمّت كوكايين، رد الطبيب.

جلس مكسيم على البطاقات، وخلط الماء بإصبعه. وتمتم لنفسه من تحت أنفه:

- إحم.. إحم.. ما هذا؟ هذا العمل عن عائلات الصحافيين. وعلى هذا لن يجيبك فرويد ولا حتى بابا روما.

- وأنتم تعرفون هذا؟

- طبعاً. ضحك مفوض أمن الدولة للاتحاد السوفييتي. نحن نعرف كل شيء، والرب فقط يعرف أكثر منا.

الفصل التاسع
صليب وسيف

في صباح حزيراني مبكر بدأت الحرب. وككل مؤسسات الدفاع، في القسم الثالث عشر، فضّوا مغلف التعبئة في اللجنة الشعبية للأحوال الداخلية، حيث ذكرت الإجراءات في حالة الحرب. وكأول إجراء، تم تعيين مفوض أمن الدولة رودنييف جنرالاً عقيد لمسؤولي أنواع الأسلحة المختصة للجنة الشعبية للأحوال الداخلية.

الطائرات الهتلرية العملاقة الجبارة قصفت كييف، أوديسا ومنسك. وتوغلت الفرق المدرّعة الألمانية في عمق الاتحاد السوفييتي. وتراجع الجيش الأحمر متكبداً ملايين الخسائر؛ قتلى وجرحى وأسرى. وتوجه ستالين في الراديو بنداء:
«أعزائي الأخوة والأخوات . . . »
ومن القلق، سمع الناس عند شربه الماء اصطكاك أسنانه بحواف الكأس.
في ردهة المعهد الصناعي، حيث يدرس بوريس، علّقوا خارطة كبيرة للاتحاد السوفييتي عليها، بمساعدة الخيوط والدبابيس حدود الجبهة. ورأى بوريس كيف كان يتراجع، كل يوم، هذا الخيط الأحمر.
وقف القسم الثالث عشر للجنة الشعبية للأحوال الداخلية وراء كل هذا. واهتم بالأبطال الشهداء بعد الموت.
و بحماس، مدحت كل تقارير الصحف كل ما يتعلق بموتهم، ومحذّرة من مراقبة بروفيسوريي رودنييف العارفين بسر مشاكل نيرون الحية.
– مرة أخرى، تعمل صدام ومواجهات مع الموت، قال بوريس. فما العمل هناك؟
هذه المرة، أجاب مكسيم بما يكفي:
– أترى. عندما أخذنا مجموعة شهداء، واقترحنا لهم الاختيار: التبرؤ من المسيحية أو يقتلونهم هناك في الدهليز، فإن أكثريتهم تبرأت. لكن، عندما اقترحنا لهم التبرؤ أو الموت على ساحة المسرح، فأكثريتهم فضلت الموت. لكن الموت مع المجد.
وكل المسألة أن هؤلاء الشهداء انتموا إلى نوع نفسي محدد من الناس الذين يمكن العثور عليهم الآن. المطلوب فقط، عمل شروط ملائمة.
– لكن هذا قتل، قال بوريس موجها كلامه لأخيه.
عندما ظهرت المجازر الدموية، من البحر الأسود إلى البحر الأبيض، والمعارك خلف الخطوط، والدبابات المندفعة بأرتال، والطائرات الهتلرية، جلس الجنرال رودنييف وقرأ قصيدة بلوك «اثنا عشر». وقد وصف الشاعر الرمزي صفاً من الحرس الأحمر في وقت الثورة.
نهاية القصيدة هي لغز للحمر والبيض. وبإكليل ورد أبيض، في الأمام عيسى المسيح. للبيض كان يروق هذا. وللحمر كان تديناً صوفياً ضجراً.

ـ وهكذا صف من الحرس الأحمر والثالث عشر هو المسيح.
تمتم مسؤول القسم الثالث عشر في (ل. ش. ح. د.)، يعني هذا ليس المسيح وإنما عدو المسيح. نعرف صرعاتهم. كل شيء يقلبونه مثل 69. ودار النشر «الكونوست» سيرينا نعرفها، أيضاً. قصائد جيدة. هؤلاء الرمزيون نعرف رموزكم.
وجهان – (*In daemone deus*) الشيطان والرب.
ماركسياً وحدة وصراع المتناقضات. . . أترى هتلر و ستالين نفس الشيء. ولهذا يقتل الملايين من الناس بعضهم بعضاً، لماذا؟
تحت قيادة الجنرال ذي الكتب السوداء، اندفعت مجموعات السحرة، بتشكيل الخبراء المخرّبين، خلف خط الجبهة؛ ولتفجير الطرق والجسور، والمستودعات خلف القوات الأميركية. وتسللت الجميلات الساحرات، الباردات الفاتنات، بتشكيل عميلات، الواحدة منهن كالأفعى، إلى فراش الضباط الألمان، وإلى الأسرار العسكرية الحربية للفيرماخت. الآلاف من المشقلبين والعفاريت الزعران الخبثاء كالسم بالسكين والديناميت، ودمروا مؤخرة الآلة الحربية الهتلرية. وكالجنرال الصامد طرد الجنرال الشيطان قطعانه للقاء الموت.
عندما يأخذ هتلر قراراً ما فهو لا يتشاور مع أحد. فقط أحياناً في حال القرارات الخاصة المهمة، فإنه يجتمع مع شخص واحد، إنه ويلهلم كرافت المنجّم. عندما علم تشيرتشل بهذا، أمر بإدراج المنجّم في تشكيل الجيش الإنجليزي. وهو الكابتن لوي دي فول، منجّمه الخاص، ليتابع النجوم وقرارات هتلر. لكن القسم الثالث عشر للجنة الشعبية للأحوال الداخلية لم يقتنع لا بهتلر ولا بتشيرتشل. ومنذ زمن، امتلك اختصاصياً مناسباً مع منظار يراقب منه آثار المعارك.
وكلما ازدادت ميداليات على صدر الجنرال رودنييف أصبح أكثر صمتاً. وطافت حوله شائعات غامضة: إن الجنرال الشيطان بحث أكثر من مرة عن الموت في المعركة، ولكنه لم يجده؛ ولم تصبه أي طلقة ولا النار ولا الماء . . وإنه وقّع اتفاقاً مع الشيطان، فهو لا يستطيع الموت قبل أن ينهي وقت الاتفاق.
أما الآن، فقد تابعوا نشاط الشيطان في كل العالم. ذلك

الشيطان نفسه أمير هذا العالم، الذي طارده بلا نتيجة في محاكم التفتيش في القرون الوسطى، والذي وضعه البروفيسور رودنييف في خدمة السلطة السوفييتية. ولخدماته الخاصة، عيّن مارشال أمن الدولة مكسيم رودنييف نائباً أول في وزارة الداخلية بالاتحاد السوفييتي. الآن استطاع اليسراوي (الشدفاوي) سحق كل واحد بجرة قلم. وهكذا تحققت رغبته الصبيانية عندما توسل للرب أن يجعله قوياً وكبيراً.

الفصل العاشر
بيت الشر - الخير

عاش مكسيم بعد الحرب في بيت مهجور، في زقاق هادئ، قريب من بولفار غوغوليفسكي، حيث لا توجد حركة في الشارع ولا ضجة، وحيث تتغطى الجسور بسجادة ناعمة من أوراق الأشجار المتساقطة. . ومنها يحرق الأولاد أكواماً مشتعلة. وخلف بوابة مطرّقة في عمق الفناء اختبأ بيت قديم كان من قبل الثورة لتاجر ألماني كبير.

كان هذا الألماني غريباً. وبنى لنفسه بيتاً - عزبة - روسية، لكن بطعم ألماني. وهي من الجذوع لهيكل ذي طابقين. ويعد ذلك تذكاراً عن البيت الروسي. وتصفح البيت بطبقة سميكة من اللباد، التي يبني منها القرغيزيون اليورتا - المساكن. وتغطى من الخارج بالخشب، ثم سقفوه. ومن الداخل ألصق الخبيث الألماني مع ورق الجدران الخيش للرسم. وحجز فناناً للرسوم الزيتية التي تناسب دور كل غرفة.

النوافذ الفينيسية الواسعة كانت محاطة بزجاج ملون منمق في إطار قصديري مجهز بحجر خاص من نيورينبورغ. وعندما أضاءت أشعة الشمس على الرسوم، بدا كأنه موجود ليس في بيت، وإنما في دير كاثوليكي. وعلى السقف دارت دوارة هواء من ديك ذهبي.

مقرراً السكن في هذا البيت، طرد مكسيم منه كومة من عمال الحزب الذين عاشوا هنا في كل غرفة عائلة كاملة؛ أولئك الذين ثقبوا الجدران، حيث كان يمكن ملاحظة الجذوع من اللباد والخيش واللوحات. بعد ذلك رمم مكسيم كل البيت حتى الديك الذهبي، وأضاف الحاجز للسور المعدني العالي الأخضر، ومفاتيح بسلك من الأعلى، وسكن هنا وحده مع كلب ألماني - رولف - وقطه التركي الذي اختاره في زمن ما من الشارع.

تحت السدة كان المطبخ، حيث يقود سلم حلزوني مبهرج، وحيث لمع البلاط الألماني، وموقده فرن روسي ضخم، بنحاسه الأحمر، الذي يمكن به شيُّ ثور كامل. وقريبا، غرف الخدم. ومن هناك تلهى مكسيم بفك وتخريب عشّ للأفاعي. ويحاول العمال الغرباء الانعزال عن عائلاتهم بسلالم حلزونية، حيث يمكن أن تنكسر عليها الرقبة. وفي هذه الغرف يعيش حارس القصر وزوجته التي ترعى المطبخ.

وكما يفترض في البيت الأرستقراطي، في البيت الذي فوقه ديك ذهبي، كانت هناك عدة غرف للضيوف، حيث كان يمكن البيات هناك. وهذا الضيف هو بوريس رودنييف عندما يتأخر ليلاً، قريباً من بولفار غوغوليفسكي، وعندما يتكاسل عن السفر إلى بيته.

محاولاً تقريب أخيه الأصغر، أعطى مكسيم المفتاح الثاني للبيت لأخيه. لكن، في كل صباح يصحو في البيت تحت الديك الذهبي يحس موجه الدعاية بنفسه كأنه جاسوس في حصن الأعداء. كل شيء هنا ناقص. كل تعليمات الدعاية، وتحديداً مكتبة الكتب السوداء لمكسيم.

تظهر في أيام السبت، أحياناً، امرأة في البيت تحت الديك الذهبي. لكن، بعد انتحار الزوجة الحبيبة وموت الطفلة، لم يفكر مكسيم بالزواج. وعاش وحده أعزب كالذئب الناسك.

ومع كل ذلك، وجدت الحريم في القسم الثالث عشر لوزارة الداخلية. وأحاطت حوريات هذا القسم بالدبلوماسيين الأجانب والصحافيين. وبشكل خاص الأجانب! أو الوجهاء السوفييت الكبار. وفي موسكو، أطلق عليهن «ممكن؟ بنات وزارة الداخلية»، حسب كل التخصصات والنوعيات. و«ممكن بنات» تنقسم إلى عدة أصناف. بعض الحوريات كانت من بنات النبلاء لعائلات روسية قديمة - نبيلات كونتيسات، وهؤلاء الصنف العالي.

وقالوا: إن واحدة من هذه الحوريات من جذور القياصرة القفقازيين القدماء كانت ليست زوجة، وليست أسيرة لوزير الداخلية بيريا. وقالوا، أيضاً: إن عديل الوزير السوفييتي للشرطة السرية جمع غير المرشحين الخصوصيين لعرش آل

رومانوف، الذي كان متزوجاً على الأخت الثانية للقيصرة. وعلى شكل مكافأة لحوريات الصنف العالي قدم لهن حق القبول أو الرفض في كل الحالات. وبعض هؤلاء الغانيات كن جميلات وذكيات، حيث إن موافقتهن أو رفضهن لم يأنف منها حتى مسؤول القسم الثالث عشر نفسه.
في تلك الأيام، وبدلاً من زي الماريشالية، ارتدى مكسيم بدلة مدنية كي يعرفنه الحوريات، ولأجل أن يكنّ في ضيافة السلطان نفسه. وصباحاً أيقظ حارس القصر، باحترام، كي ينقلها إلى البيت. وتمشى مكسيم بلا هدف في الغرف، وتلاعب مع الكلب والقط.
سأل بوريس على إثر إحدى الشقراوات الجميلات:
– لم لا تتزوج بواحدة كهذه؟
– حالة سخيفة، قال مكسيم، ألم تجد في موسكو جميلات أفضل. فالأفضل عدم الزواج منهن.
– لماذا؟
– لأن هؤلاء الجميلات لسن بسيطات، وإنما جميلات خصوصيات.
– وأي خصوصيات؟
– كهذه؟ وضحك مكسيم – مسحورات. ويجب معرفة التعامل معهن. ثم نظر بحدّة إلى الأخ الأصغر وتجهّم.
– لا تفكر بالارتباط بهن. عدا التعاسة لن يلحق بك منهن. ولكن، كما ترى، فإن الرب يعيش في السماء، قال مسؤول الدعاية.
مسّد مارشال أمن الدولة القط من خلف أذنه، وكأرثوذكسي مجرب مجبراً على المماحكة والمهاترة مع ملحد فسر بطيبة خاطر.
– كل مملكة الرب ليس في السماء، وإنما على الأرض. والرب يعيش ليس في أي مكان، وإنما في أرواح الناس.. وكذلك الشيطان.
سابقاً أحب مكسيم ممازحة أبيه الذي يذهب إلى الكنيسة، لكنه ضل في تفاصيل الإنجيل. أما الآن فاستلم الأخ الأصغر:
– اسمع أيها الرفيق من القسم الدعائي، أتستطيع أن تصحح لي؟
–ماذا بالضبط؟ تيقظ قسم الدعاية.
– حسناً، إليك مثلاً، فسر لي معنى النجمة السوفييتية؟
– إنها رمز الشيوعية.
–ولماذا هي خماسية؟
– خمس قارات.
– ولماذا هذه النجمة للأميركان الرأسماليين؟
– الشيطان يعرفهم. استسلم المسؤول الدعائي.
أما المارشال ذو الكتب السوداء فقد ضحك بتسامح. ثم سحب كتاباً من القرون الوسطى. تصفّح وكشف. كانت هناك صورة – نسخة دقيقة للنجمة الخماسية السوفييتية. فقط باختلاف أنه وُضع داخل النجمة إنسان عار. الرأس في الأشعة العليا. يداه ممدودتان على مستوى الكتف.. الرجلان متباعدتان وبالأشعة السفلى. وعلى كل الجسم كانت هناك إشارات مرسومة عن الشمس والقمر والنجوم وهكذا...

الفصل الحادي عشر
ثمن الخلود

انتشرت شائعات في موسكو. وقد بدأ هذا في 13 نوفمبر العام 1953، عندما ظهرت في صحف موسكو تصريحات رسمية عن اعتقال أطباء الكريملين، الذين اتهموا بتسميم قادة الحزب والدولة. وبما يشبه القصة غير المعقولة مع الأطباء المسممين، وما حصل في حملة التطهير الكبرى في سنوات الثلاثين، فإنهم أصبحوا يتكلمون الآن بأن ستالين يحضر لحملة تطهير ثانية، وأنه في الزمان القريب يبدأون باعتقالات جماعية في قيادة الكريملين.
ظهر أن أكثرية المعتقلين يهود. وسرت شائعات بأن هذا طبعاً ليس ببساطة. بعضهم قال إن ستالين يريد إرسال كل اليهود إلى سيبيريا في منطقة الحكم الذاتي لليهود.
وقال آخرون إن ستالين غضب على اليهود – الفقراء – ومن أبنائهم ياشا، فاسا، سفيتلانا، الذين لا يصمدون فيعودون إلى اليهودية عندما يصل الأمر الى الزواج؛ لكن ستالين اشتبه بأن هناك مؤامرة صهيونية.
مرة، صباحاً في الأيام الأولى لآذار، صرحوا في الراديو بأن القائد المعلم العظيم في الحزب والدولة، الصديق المحبوب للشعب السوفييتي، الجنرال يوف فيساريونوفيتش ستالين.. وتقطع هكذا صوت المذيع، وكأنه لا يقوى على القول...

إنه . . . غير ممكن تماما. وبشكل عام مات الخالد ستالين نتيجة مرض معقد. وإن ما أكده كالعادة مجموعة أطباء الكريملين، والآن انتشرت شائعات بأن ستالين مات قبل ثلاثة أيام. وقد أخفوا هذا من الفوضى، متذكرين الأطباء المعتقلين، منتظرين التطهير. فكر الناس أن ستالين مات تماماً. وكأن الفئران أكلت القطط.

خمارة لشرب البيرة كانت في ساحة نوغين مكتظة بالناس، وقد حضن الساقي الذي يلبس نعلاً مطاطياً متمايلاً صاحبه بسترة قطنية: أنا الآن في استراحة الغداء. وبعد الاجتماع التأبيني يجب، كما أفكر، أن أحضر وليمة تأبينية للأب.

جلس على المائدة مجموعة أصدقاء لعمال البناء، وقد شربوا بكثرة، قال أحدهم بأنفه الطويل وبعينيه الدامعتين بعد أن دفع طاقيته إلى الوراء بمبالغة: وهكذا . . . حتى الموت. وستالين الداهية قرر التدقيق، كيف يعيش في الجحيم، وكيف يعيش في الجنة. وهذا يعني من أجل أن لا يخطئ، لكنه جلس في الباص، وسافر في البداية إلى الجحيم.

«فيلزيفول» بنفسه ترجل من بوابات الجحيم، وجثا حتى لامس ذقنه الأرض. وحيا بذنبه المتحرك في النجوم: نتمنى الصحة للرفيق ستالين، عزيزنا يوسف فاسيريونوفيتش!

وقال له ستالين: مرحى يا رفيق إبليس. حسناً، أرني الكولخوز عندكم.

واندس ذو الأنف الكبير.

وفي الجحيم يعني؛ يوجد بابان: واحد لليسار، والثاني لليمين. فيقود الشيطان يوسف فاسيريونوفيتش، أبانا، فوراً إلى ذلك الباب على اليسار. وهذا، طبعاً لأنه عمل كل شيء باليسار. يدخل. فماذا يرى؟ ملصق على الحائط: «أهلاً وسهلاً بكل الشياطين!».

وعلى الحائط الآخر شعار: «تحت قيادة ستالين العبقري ننفذ كل خطط شياطيننا بـ 30٪» وعلى الحائط الثالث: «عاش القائد الحكيم، ومعكم كل الشياطين الرفيق ستالين». ومسح المتحدث حنجرته بالبيرة.

– وأنت لم سجنت؟

– أنا؟ للديالكتيك. كنت رئيس كولخوز. لم ننفذ الخطة في إنتاج الثيران وتلقيحها. وطالما لا نستطيع سجن الثيران، فبالديالكتيك أخذوني أنا. لمَ لم تساعد الثيران؟ وسجنوني خمس سنوات للَتخريب.

وغنى السكير الفقير:

مرة ثلج . . مرة مطر . . ومرة فوقنا البعوض
ونحن في التايغا من الصبح إلى الصبح
وأشعلتم من الشرارة حريقاً
شكراً لكم، فأنا أتدفأ عند الشعلة

جهاز التلفون:

– هالو . . . الدكتور بيكوف يسمع.

– حسناً إيفان فاسيليفيتش. كيف الأعمال عندكم؟

– وهكذا انتهينا.

– أريد في كل الحالات التحقق من أنكم لم تنسوا شيئاً. جثة لينين هرش بها الأطباء وهرشوا . . . كيف الغدد الداخلية؟

– كل الغدد أصبحت محنطة.

– كلها؟ الثماني؟

– نعم.

– ممكن الفحص والتدقيق الأولي؟

– كما كان منتظراً. بعضها يمتاز بالتضخم، وبعضها ضامر النمو.

– أرسلوا فوراً هذه الغدد إلى مختبرنا للتحاليل النهائية.

– والآن كيف يده اليسرى؟

– متضررة. يد جافة.

– وأنتم متأكدون من هذا. إنه ليس تشوه بالطفولة؟

– هكذا يقول الجميع للتمويه. لكن هذا بالولادة. عدا ذلك فإن اليد اليسرى لا تنثني للنهاية.

– نعم، ولأجل هذا، كان قد رفض من الخدمة العسكرية في الحرب العالمية الأولى. وفيلهلم الثاني الذي أشعل تلك الحرب كان بيد جافة . . .

هو . . . هو . . . يستطيع ذو اليد الجافة إشعال الحروب. لكنهم لا يحاربون.

– وكيف أصابع القدم؟

– لديه إصبعان متلاصقان . . . عملياً له أربع أصابع.

– نعم. هذا ملاحظ في محاضر الجندرمة . . وما هي استخلاصاتكم؟

وبسرعة مات الأب . ومع أن الأم كانت شابة ، إلا أنها لم تتزوج . وهذا ما يشبه أنها لم تكن بحاجة إلى رجال . ولهذا كان لدى الابن ، كما يقول فرويد ، عقدة الأمومة .
– م . نعم ، قال الصوت عبر السماعة ، خصوصاً أن الأم أرادت أن تجعل منه قديساً . وأم هتلر . أما دزرجينسكي فأراد أن يصبح قسا .
– اللوحة واضحة بشكل عام . عدا الزواج المختلط لأبنائه ، لأن الأب تشيطن .
– حسناً . إيفان فاسيليفيتش . وماذا بشأن أدوتينا؟
– ذات فعل رائع .
– وعلى الأعضاء الداخلية؟
– ظاهرة عادية . تغير ميتابولزم الدم ، والنتيجة الطبيعية تخثر الدم في الأوعية الدموية .
– والمخ محنط؟
– نعم . وعقدة السلطة أيضاً . يتراكض الممرضون حولنا . يفكّرون أنه الأقوى في العالم .
– والمومياء تمام؟
– كالخيار القليل الملح . لكن بقيت هناك أحشاء غير لازمة . ماذا نعمل بها؟
– في وقت ما ، كان قد أطلقت هباء بقايا أحد القياصرة في المدفعية ، أما الآن فهذا عادة قديمة .
– أنضعها في أحد صناديق الزبالة المزينة؟
– كلا . كلا . وإذا وجد الفضوليون آثار أدويتنا؟
تهاني – قال الأصلع – طيبا رؤية المستشار الحبيب لستالين كيف يحفظ عمل الخير والدموع في العينين . شيء مؤثر حتى أنني أريد البكاء .
وبسخرية جلس بسترته وقبعته في الكنبة .

الفصل الثاني عشر
معادلة السلطة

بعد أن حنطت بقايا ستالين ، وضعت بالقرب من ضريح لينين في الساحة الحمراء .
وفي الناحية الأخرى من جدران الكريملين بدأت لعبة القط والفأر . فظهر ، بسرعة في الصحف باسم مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي ، أن النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء ، ووزير الداخلية بيريا ل . ب . ، يعزل عن منصبه ، وتسلم قضيته لمحكمة العدل من أجل النظر فيها .
ترأس بيريا هيئات أمن الدولة للاتحاد السوفييتي 15عاما . والآن ، فجأة يتضح أنه المخرب الرئيسي والعميل الأجنبي . وهكذا أكلت الفئران القط مرة أخرى .
على إثر المخرب الكبير – مثل وزير الداخلية – من الطبيعي تماماً أن ينظفوا كل موظفيه المقربين ؛ النواب ومسؤولي الأقسام . لهذا أثارت الصحف تخوفاً . لكن من خاف بشكل جدي هو بوريس على مصير مكسيم .
لكن القسم الثالث عشر كان كالمسحور . مات ستالين في ظروف غريبة تماماً . اعتقلوا بيريا كعميل . وسجنوا مساعديه واحداً إثر آخر .
وعلى صدر رودنييف ظهرت النجمة الثانية لبطل العمل الاشتراكي ، إلا أن تعابير وجه البطل كانت «مقفعة» وكأنه أكل «خرا» .
من يؤمن في عصرنا التنويري بشكل جدي بالرب؟ طبعاً ، الناس الظلاميون فقط . وطبيعي تماماً أن رئيس قسم الدعاية بوريس رودنييف لم يؤمن بالرب ولا بالشيطان .
مع ذلك ، لاحظ بوريس ، أثناء بحثه في مكتب الكتب السوداء ، في بيت مكسيم ، أنه تحفظ هنا مع شيطان القرون الوسطى مفاتيح لأكثر الأسرار غموضاً في السلطة السوفييتية .
وهكذا ، مثلاً هذه القصة ، قبل فترة ليست طويلة من موت ستالين اجتاحت موجات التطهير الدموية أوروبا الشرقية . وفي الوقت الذي ترفّع فيه زعماء الشيوعية ، الذين كانوا يعيشون مثل الأمراء في دول الديمقراطية الشعبية ، وحيث أثيرت ضجة حول عملية رايكا ، وبقدر ما كانت النقمة على هؤلاء الأمراء ، اليهود ، قرعت الصحافة الغربية ناقوس الخطر ، بخصوص العداء للسامية .
في هذا الوقت كان قد جلس في غرفة مكسيم ، الملازم في الخدمات التقنية في وزارة الداخلية ، إيليا سيرغييفتش كوراشوبوف ، بروفيسور التاريخ ورئيس لجنة شؤون الأديان

في مجلس الوزراء للاتحاد السوفييتي .
وقد غير موظفو القسم الثالث عشر ، كقضاة حقيقيين ، أسماء عائلاتهم . وهكذا ، مثل الجنرال البروفيسور كوراشوبوف ، فإن اسم عائلته هذا يعني ويشير رمزياً إلى أنه يحسس على الدجاج .
على فكرة ، كانت «أنّا باوكر» قد أحبت التبختر والمسدس على مؤخرتها . تناول الجنرال المؤرخ سيجارة بابيروسا وتابع : « . . لكن ، وفي نهاية النهايات تحولت نتستينغا الى المسيحية . وقد كتب اثنان من القياديين ، وهما الأخ أنطونيو دي غايته ، والأخ جيوفاني دي مونتي ، عن هذه الـ«نتستينغا» كتاباً مفصلاً .
وعن طريق الكنيسة وصل هذا الكتاب إلى روسيا . فمن زنجية آكلة لحم البشر ظهرت حكايات عن أكلة لحم البشر بابا يغا .
وإذا كنت تعرف كل شيء بشكل جيد قال رئيس قسم الدعاية ، إذا أخبرني لماذا؟
– أترى ، قبل قليل تحدثت عن أن كامو كان أحول . وتوجد أمثلة بالقدر الذي تريده .
فالعين هي مرآة الروح . لدستويفسكي كانت عينان مختلفتان . وهذا أيضا ينعكس في إبداعه وطريقة حياته ، من ثوري إلى رجعي .
– إيليا سيرغيفيتش ، أمعقول أن تستخدموا دلائل سخيفة كهذه في عملكم .
بعد ذلك ، وردت مواد في قضية «النجمة الزرقاء» عن فيدكا الأحول نفسه الذي كان ملكاً للمجرمين في موسكو ، والذي كان لديه خمس زوجات ، وهذه اعترافات فيدكا الأحول نفسه ، حيث كتب التالي : «فور ما أرتمي على السرير يكون معي بالفراش مسدس ، وهو محشو وأنا مهدد بالاغتصاب والسطو . ودون هذا الأسلوب أكون عنينا ، ولا أستطيع عمل شيئ لزوجتي في الفراش .
ومن هذا ملت زوجتي الخامسة ، وقررت طردي . ولم تتمكنّ النساء الخمس من فهم روحي المعقدة . والمسدس بالنسبة لي هو كالماء المقدس الذي يروي عطشي للسلطة والأمر والنفوذ الجنسي . ولم تعطني أية زوجة الراحة النفسية والجسدية ، مثل التي تخضع لي خضوعاً كاملاً وتلبي رغبتي مثلما تطلب مني الغفران من الخوف . ولم يفهمنني مع أني كنت ألبّسهن كاللعب» .
إحم . . إحم . .
نحن الشرطة السرية لروسيا الفتية روسيا الجديدة! ونحن نعرف كل شيء ، وفقط الرب نفسه من يعرف أكثر منا .
في حالة السجناء المهمين ، وحتى لا يقتلون أنفسهم قبل الوقت ينتزعون منهم الحزام ، حمالة البنطلون ، الخيطان ، حمالات الجوارب والنظّارات . وكذلك تقطّع كل الأزرار من البنطلونات .
حلقوا لهم ، ووضعوهم تحت الدش . رشوهم بمسحوق ضد القمل ، ثم وضعوهم في الزنزانة ، زنزانة ذات سقف منخفض في أحد الطوابق السفلية تحت الأرض للإدارة العامة لوزارة الداخلية .
وهناك تحت الأرض ، في الزنزانة دائماً الضوء الكهربائي مشتعل . وهنا لا يوجد فرق بين النهار والليل . لهذا عندما نظم مارشال أمن الاتحاد السوفييتي هذا النظام وقع هو نفسه بهذه الزنزانة ، ولم يعرف كم أمضى من الوقت هنا .
قادوه في البداية إلى لجنة طبية ، حيث فحصوا صحته فيزيائياً بدقة ، وكأنهم يهيئونه للطيران نحو القمر . ثم أجبروه على المرور بسلسلة تحاليل نفسية وتجارب معقدة وملغّزة ، حتى أن الشخص العادي يتوه بها .
لكن الجنرال السابق علم عن ماذا يبحثون ، وعرف كيف يخدعهم . وقد علم الأطباء بهذا وطلبوا منه أن يكون صريحاً باسم العلم ، حيث لن يخسر شيئا .
وكذلك المعتقل علم أنه لن يخسر شيئا . وحسب هذا الاهتمام الزائد بصحته علم ما ينتظره . وعلم متى يكون هذا . أي ليس قبل أن ينهي سيرته . لم تكن استمارة بسيطة .

الفصل الثالث عشر
كل الناس أخوة

كما تسبح الغيوم في السماء جرت أحداث كبيرة وصغيرة في موسكو . غيروا أسماء مؤسسات أمن الدولة : وزارة الداخلية ، وزارة أمن الدولة ، لجنة أمن الدولة . لكن القسم

الثالث عشر لوزارة الداخلية لم يغير اسمه. ببساطة، لأنه غير موجود رسمياً.

يقول الفلاسفة إن أول عمل يحاول الشيطان عمله هو إثبات أنه غير موجود. إنه لا أحد ولا شيء. لهذا أظهرت محاكم التفتيش السوفييتية – وهي عالمة بمعادلة الشيطانـ وكأنها غير موجودة، أي أنها لا أحد ولا شيء.

ويؤكد الفلاسفة أن الشيطان يعمل كل شيء في الظلام، من الخلف وبالعكس. وبالضبط، هكذا عملت محاكم التفتيش السوفييتية.

ومن الخلف قاد القسم الثالث عشر كل الأقسام الإثني عشر لوزارة الداخلية ووزارة أمن الدولة ولجنة أمن الدولة. وليس فقط هذه الأقسام.

وقد قيل في الكتاب المقدس إن الشيطان هو أمير هذا العالم. وهنا، فمن أمسك بهذا اللجام فإنه يستطيع توجيه العالم.

وفي كل الحالات بالمقارنة بفورستال الديمقراطي الذي طار من النافذة فإن شيبيلوف قد وفق جداً.

فقد وضع وزير خارجية الاتحاد السوفييتي السابق هكذا، وببساطة في بيت المجانين. وكان يغني:

«هنا الكحوليون
يجلسون كالملوك
والشيزوفرونيون
يخيطون الأكاليل».

في ذلك الوقت جاء المؤتمر الثاني والعشرون للحزب الشيوعي السوفييتي.

وتحدّثت البلشفية دورا مازوركين بشكل مذهل ومشوق في هذا المؤتمر. وقد كانت عجوزاً مثل الفطر المخلل. عرجاء بقامة مائلة. ثورية ومعاصرة للينين. توقفت عن نشاطها الثوري منذ خللوها أكثر من عشرين سنة في المعتقلات الستالينية.

كان في زمن ما في الاتحاد السوفييتي معهد البروفيسورية الحمراء، وبسرعة بعد الثورة جهز كوادر جداً.

وقد وضع الكوادر العليا بالحزب والحكومة في الإتحاد السوفييتي في معهد العلوم الاجتماعية العليا الجديد.

لكن هذه المؤسسة العلمية كانت سرية. وعلى كل بروفيسوريي القسم الثالث عشر في الملاءات البيضاء ظهر زي القسم الثالث عشر في وزارة الداخلية كالذنب للشيطان.

لهذا وبمقارنة بمعهد البروفيسورية الحمراء السابق سميت هذه المؤسسة الجديدة بسرعة بمعهد البروفيسورية السوداء.

وقد سميت من مستمعي المحاضرات في العلوم الاجتماعية السوداء.

---

* كاتب ومترجم فلسطيني يقيم في رام الله.

هوامش:

(1) صيغة التصغير والتحبب من اسم بوريس.

(2) اختصار لـ« اللجنة الشعبية للأحوال الداخلية – القسم السري للمخابرات السوفييتية سابقاً».

(٣) اللجنة الاستثنائية لعموم روسيا التي أسسها دزرجينسكي مباشرة بعد ثورة أكتوبر الإشتراكية، ومنها تأسست «الكي. غي. بي.» لاحقاً.

ملاحظة: أمير هذا العالم صدرت طبعتها الأولى العام 1970 في نيويورك.

الطبعة الثانية العام 1980 في سان فرانسيسكو.